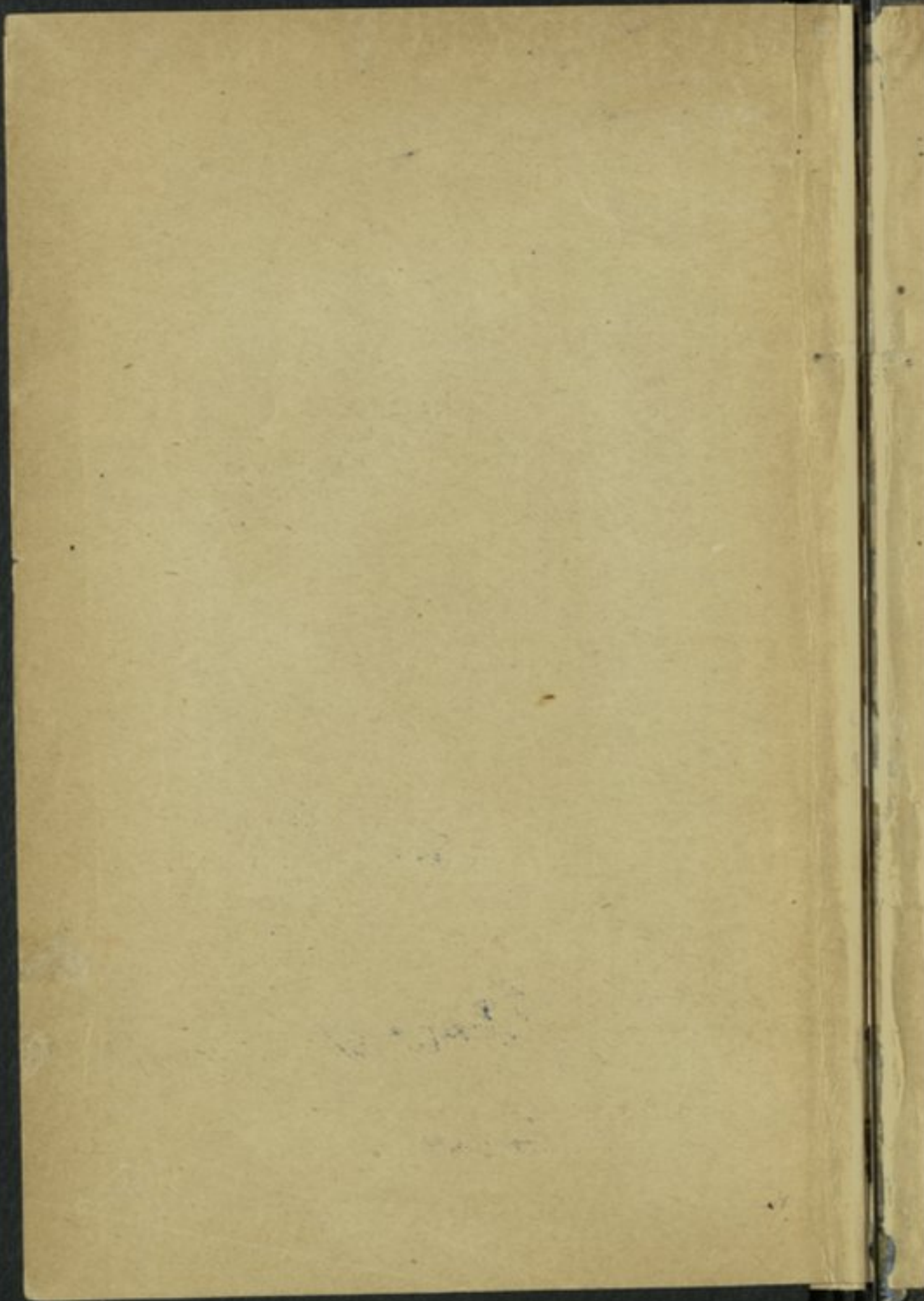


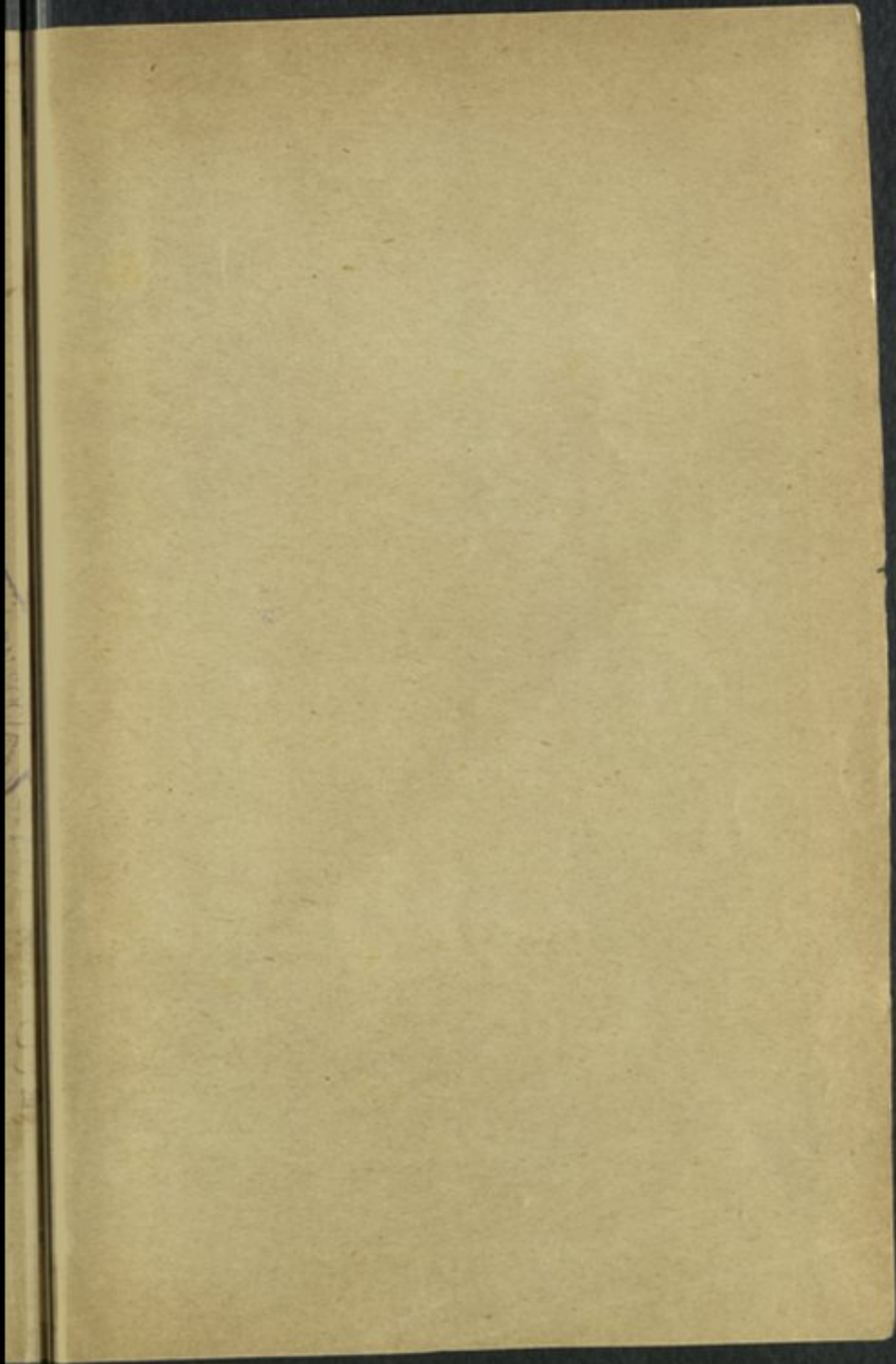
~~15 MAR 67~~

~~17 APR 67~~

JAFET LIB

~~2 SEP 1977~~





892.78  
J942A  
C.1

# لِيَا لِي الشُّرُوحُ الْخَالِصَةُ

١٤٤١ - ١٩١٢

مقدم جمعية الاتحاد المصري

*محمد لطفى*

تأليف

محمد لطفى صحف

٤:٤

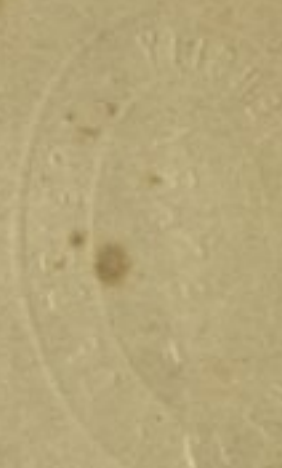


39335

طبع على نفقة

مناجيب مكتبة التاليف

بمصر



بسم الله الرحمن الرحيم

اهداء الكتاب

الى شبان مصر النجباء اهدي كتابي «ليالي الروح الحائر»  
كثبتها اذ كنت أعيش بينهم وأشعر بعواطفهم وتداخل  
نفسي الشكوك التي تخالج نفوسهم الفتية. فلعلهم يجدون في  
صحفه اجوبة للاسئلة التي يحارون في الجواب عليها، ولعل  
صرخات الروح الحائر تصل الى اعماق قلوبهم كما خرجت  
من اعماق قلبه : محمد لطفى صحفة

القاهرة في ٥ مارس سنة ١٩١٢



جمعية الاتحاد العربي  
بيروت  
BEYROUT, SYRIA

# ليالي الروح الحائث

الليلة الاولى

رثاء صديقي

كنت منذ ايام قليلة جالسا على حجر من أحجار الهرم الاكبر،  
وادرك الغروب الشمس فغابت وراء الرمال المتراكمة على حدود  
الصحراء، وتركت وراءها خيوطا من الذهب تم عن مخبأها وامتدت  
تلك الخيوط الى النيل الجاري في سفح الاهرام فصبغته بلون قرمزي.  
وكانت القاهرة بما ذنها وقبابها وقصورها وحدائقها وأهلها تبدو كصورة  
منقوشة في الوادي، وحوطها جبل المقطم كأنه سور يحمي مدينة الخلفاء،  
وبرأسه حصن صلاح الدين العتيق كأنه اسد رايض على قمة الجبل  
يرنو الى المدينة المحروسة وكان يدي وبين القاهرة سبيل ممد تحف به  
الاشجار يقر به النظر للرائي، اما منظر النيل وهو محيط بتلك الطريق  
فلم يكن اجمل منه شيء.

ولما ان اشبعت نفسي بهذا الجمال نظرت الى ماورائي، فاذا  
الصحراء الكبرى بماوزها ودروبها الخفية تصافح المدينة ويوقف بينهما  
النهر العظيم كما يوقف الحب بين البدوي والحضرية، فوقفت بين يدي الطبيعة  
خاشعاً خاضعاً انظر الى البر تارة والى النهر اخرى، وارفع بصرى مرة



الى قمة الهرم فيغلي دمي في عروفي غيظا من رافع بنيانه وووضع جدراناه  
لان صخوره دموع متحجرة اذرفها شعب شقي انجازاً شهوة ملك ظالم .  
ثم اخفض به الى القاهرة وهي في السهل ، ساكنة هادئة كأنها باقة من  
ازهار شتى في يد الوادي ، يشمها ابو الهول بلذنه ويسقيها النهر بمائه  
خوفاً عليها ان تدبل او تدوي .

اسدل الليل ستاره ، ولبست الصحراء ثوبا من سواد بنفسجي ،  
وسمعت نعيب طيور الظلام وتجلت مدينة القاهرة في ثوب المساء المزركش  
بالذهب . ثم لحقتني هزة فاغرو رقت عيناى بالدموع عند ما نظرت وراء  
الجيل لعلى ارى مدينة الاموات حيث يرقد ابناء الجيل الماضى و بعض  
ابناء هذا الجيل في بيوت ضيقة مظلمة . نظرت الى حيث ظننت المقابر  
وقلت هنا في حفرة من حفائر تلك البقعة ينام صديقي وحيداً منفرداً  
عن المدينة وغوغائها ! ولم يبق منه الا عظام نخرة لم يبق من رأسه  
الذي كان ممتلئاً حزماً وعينيه المتقدتين عزماً وفمه الذي كان يتدفق  
منه الدر والجوهر وصدره المملوء بالآمال والامانى وقلبه الكبير ويده  
الايية وقدمه التي لم تسع الا الى مكرفة الا جمجمة خاوية ومحاجر  
عائرة وفكين من العظم النخر ، اما مكن القلب ومسرح الآمال  
وموطن الامانى فقد امسى قفصاً من العظام خالياً ، ويده تلك اليد التي  
كانت تجود بما تملك وتكتب ، اتلى عليها النفس المشتعلة فقد خمدت  
قوتها وتبددت قبضتها وتلاشت أناملها ! هذا كل ما بقى من صديقي

مصطفى! ولكن كلا ان ما بقى هو اثر ما كنا نراه ونلمسه اما النار التي  
كنا نشعر بوجودها فيه ولا نلمسها، نرى لهيبها ولا نراها، نحس باشتعالها  
ولا نفهم معناها، فقد ذهبت الى مكان غير هذا القبر. بل هي لا تزال  
مشتعلة في حيز لا اعرفه ولا اعرف اين هو! ايذهب صاحبي ممن  
جاء وذهب؟ الا يسمع ابناء الاجيال القادمة آهته التي اخترقت نفسي  
ليحزنوا كما حزنت ويتألموا لتلك النفس الهائمة كما تألمت؟ اني  
اذكر اليوم الذي كنا به معا في سفينة في النيل وكنا نقرأ  
حياة احد العظماء كتبها صاحب له فقال لي عدني واعدك قلت بماذا  
قال اذا مت قبلك ان تكتب عني كتاباً يكون سلوى امثالي الخزانى  
الذين لا يسمع صوتهم الا من التبور واذا مت انت قبلي ان اكتب عنك  
كتاباً يبكي من يقرأه قلت اعدك ولكن ماذا جلب اليك تلك الافكار  
السوداء قال لا تقال سوداء ان املي في انخلود عظيم ولكن اريد ان  
استعطف الانسانية على اخواني الذين بسوء حظ نفوسهم بما توتاه من  
قوة واشتعال فيذهبون فريسة النار الكامنة ولعل في قصتي عبرة للمعتبرين  
قلت اعدك . فلما ان جالت بنفسى تلك الذكرى سألتها :

متى اني بوعدى واوعدى اماتى؟ لا بد من الوفاء مهما كلفني!

° ° °

نهضت في صباح الجمعة مبكراً ونظرت من نافذة الغرفة فاذا  
الشمس لانزال متبرقة بغمام الشروق وكانت على مقربة من داري  
بشعة في الارض بكر لم تفسد جمالها يد البناء ولم يدنسها البشر بمساكنهم  
وفيهما نخيل لا تشر انما هي ملجأ البلابل والطيور المفردة في الفجر ومحط  
رحال الغربان عند الغروب فنظرت الى احداها وانا اسمع من خلال  
جريدها اصوات طيور الصباح المطربة ولم اوشك ان اشعر بجبال الحياة  
حتى ذكرت المموت وصور لي منظر الليلة البارحة التي قضيت اوائلها  
في ظل الهرم فقلت اني اقضي يومي فقال لي صوت في نفسي عليك  
بالمقابر وزر قبر صديقك الذي لو كان حيا زارك .

ولما بلغت القبور حملت زهوراً وثمرات وهرولت بين الاجداث  
امشي على عظام الوف الالوف من بني الانسان رقدوا ولن ينهضوا  
من تلك القبور مهما غردت الطيور بصوتها المطرب ومهما اشرفت  
الشموس وبرزت الاقمار ومهما اسدل الليل ستوره او طلع النهار . اجل  
لن ينهضهم ندب الناديين ولا نوح النائحين ولا حزن الحزاني ولا  
جدل الفرحين لقد رقدوا الرقاد الطويل ولن يرنوا لمن يبكيهم مهما  
طال امد العويل سرت اشق عباب تلك الرفات وكم رأس حازم  
وصدر كاتم وطرف كحيل وخذ اسيل تحت قدمي جست خلال  
المقابر وما كنت اري على كل قبر الا كلمة من سطر او آية من  
القرآن او بيتاً من الشعر او مثلاً من الامثال فقلت في نفسي اهذا كل

ما يبقى منك ايها الانسان القوي القادر يا من تذلل الماء والريح وتقطع الصحراء  
وتقهر الوحوش وتشيد القصور وترفع العروش اهذا ما لك املك الحفرة  
من الارض هي كل نصيبك من الوجود وكنت لاترضى بالعالم نصيبا  
وتتطلع الى السماء تريد منها السما كين وتهبط بنفسك الى المحيط  
تستخرج النفيسين ايه لك ايتها الطبيعة القادرة لقد اسرت من اسرك  
واذلت من اذلك وسخرك. وايه لك ايتها المقابر فانت مرقد الاوائل  
والاواخر وعبرة الماضي وموعظة الحاضر اسرت اخبط في الارض حتى  
بلغت بقعة لا تزيد سعتها عن سعة غرفة من منزلي طولا وعرضا  
حشر فيها الموت جمعا لو بعث لساعته لضاق به حي باسره من احياء  
القاهرة وفي وسط هذه البقعة الابدية قبر صغير عليه هيكل من الحجر  
خلو من النقش والكتابة وقفت امامه حاسر الرأس خاشعا لانه يضم  
رفات صديقي مصطفى .

ولم أكد ارفع بصري الى السماء عادة الانسان اذا شعر بضعفه  
واحس بالقوة الكبرى التي تتلاشى حياها قوته وتفنى امامها صوته حتى  
رايت الشمس قد اشرقت على الاموات والاحياء تبعث الى العالم  
الارضى بالحرارة والنور والحياة وتبسط اشعتها على الاجداث كأنها  
تقول ناموا بسلام آمنين فلما يأن آوان النهوض ان كنتم ناهضين .  
وارسلت الشمس بشعاع من نورها على هيكل القبر فهاجني ذلك المنظر  
المزعج وحمد له دمي في عروقي .

X  
تبا لك يا قصور الاماني ويا صروح الآمال فقد خدعت  
الاحياء حتى اسكتهم القبور وسحقا لك ايها المجد الباطل اغريت  
بطلا بك حتى اغريتهم بالغرور وتعسا لك ايها العيش الرحيم فانت  
الشقاء وانت شر الشرور كانوا يطلبونك وليتهم رضوا بالعيش اليسير  
ان الحكماء يبحثون عن الحقيقة ويقضون اعمارهم في النظر والتنقيب  
ولو دروا لوجدوها في هذا اللحد الخبير هنا الحقيقة وما وراءها هذا هو  
الغرض الذي نسعى اليه هذا ما آكل البشر! أي جمال لم تدبل زهرته  
واي حسن لم تذهب نضرتة واي ملك لم يحن حينه واي عظيم لم  
يلحقه أجله وتدركه ساعته؟ ألم تستو الحفرة الضيقة بالجدث  
الفخيم الجسيم اي فرق بين قبرك يا مصطفى وقبر نابليون بل اي  
بون بين هيكلك وهيكله ألم يقد الوف الالوف ألم تطع اشارته  
الخطوف ألم تدمر بامر المدائن فهل عاقبه المجد عند ما دعاه الموت؟  
هل خفف ألم النزاع عنه حزن الارض والبحر؟

من يدرينا بان تلك البقعة الضيقة لا تضم رفات نابغة من النوابع  
مات ولم يظهر نوره اشعلت الطبيعة نفسه وتركبتها تأكل بعضها من  
ينكر على من مات قبل ان تنضج ثمرته وتفتح زهرته انه كان يليق  
بعرش يرتقيه وتاج يلبسه وصولجان يتناوله ومملكة يدبر امرها . كم  
من درة في قاع البحر لم تصل يد الغواص اليها! كم زهرة نبتت في قعر  
وجارت ريح السموم عليها فدفنتها بعد ان ضاع اريجها في الفضاء

وتبدد عطرها في الهواء؛ كم شاعر صميم كسر الموت قيثاره ودفن الثرى  
آثاره وختم الردى على شفثيه قبل ان يتغنى بقصائده . كم خطيب  
منطيق لو مده في اجله ولم يقطع الردى حبال امله ملك زمام القلوب  
وقبض على اعنة الافئدة واستهوى النفوس ولكن غلبه الموت على  
امره واطفا شعته قبل ان يبلغ امانيه .

هنا في ذلك اللحد يرقد قتي لم تعشقه الشهرة الكاذبة ولم تعرفه  
رياءها ولم تلبسه الدنيا ثوبها ولم تسبغ عليه نعماءها جاء الى العالم وذهب  
فودعه الذكاء وبكاه الكرم وناح عليه المجد فلتبكه السماء ان كان  
لها قلب يحزن وعين تذرِف الدموع !

° °

ولما عدت الى دارى بعد زيارة القبر اندفعت اتأمل في معجزة  
انخلود وجاشت نفسي وتملكتني الحيرة فاخذت انتمس لكل سر  
معنى وابحث عن حل المسائل واستعرضت تاريخ البشر وعلومهم  
فاذاهما قاصران عن تعليل الحقائق وتفسير كنهها بل هما لا يكادان  
يكونان قطرة في محيط الوجود

يا اينها الانسانية العاجزة المسكينة يا اينها الصبية الضالة في مهامه  
الكون الازلي الغارقة في بحر الظلمات من اين جئت والى اين تذهين  
ما هو مستقبلك القريب والبعيد ، انى لاارى سوى الظلام الخالك  
خلفك وبين يديك !

السر صراحي  
السر مشوري



## الليلة الثانية

حدثت بعصره الأمام

زارني الروح الخائر في بطن الليل وفي يده مصباحه فقال : اني متعب ولا اقوى الليلة على الحديث قلت لماذا وهل تعب الارواح قال : ان تعب الارواح اشد من تعب الاجسام لاننا نشعر بالألام لا نشعرون بها انتم .

قلت وكيف صار لك هذا التعب ؟

قال الا تعلم اني لا استقر على حال وانني افسأ اضرب في الارض شرقا وغربا اهبط السهول واصعد في الجبال مستطلعا احوال العالم لعلني اجد حلا لبعض المسائل ؟  
قلت : لم اعلم هذا من قبل .

قال : اني قادم من بلاد قصرية تسكنها امة عجيبة اسمها امة الهوز ولم اكن ورددتها من قبل ولسكننا في حالنا الروحية اوتينا علم الاسن البشرية فرأيت جمعا عظيما في سفح جبل عال على ضفاف نهر قديم فدنوت فاذا في القوم خطيب يخطب فاستمعت الى قوله وقد وعيت معظمه فتوسلت الى الروح الخائر ان يعيد علي سمعي بعض ما سمع  
قال : قال الخطيب :



« اخذ بعض المصلحين من افراد المجتمع الذي يسمى بالامة الهوزية  
ينهضون الهمم وينبهون العزائم ليوقظوا قوماً مضت عليهم قرون وعم  
في سكر لا يعقبه صحو بل موت لاحياة بعده . وتبعهم فريق من  
الناس يحسبون ان هذه الاعمال الجسام اثراً سوف يظهر في تلك  
الاجسام ويعلمون انفسهم بحياة قومية وبنهضة امة تعيد مجد الامة المرنية  
ويعلمون نجما نجم الامة الضرغمية ولا يزال هو لا ، واولئك في غيهم  
حتى يسفر الحق ويزهق الباطل ويظهر للجماعتين ان معجزات الانبياء  
وعجائب المرسلين لا تفيد فيمن سلبت منهم اسباب الحياة وحينئذ يبدو  
لهم صدق قول القائل لا يصلح العطار ما افسده الدهر .

ولا يسبقن الى ذهن من يسمع هذا الكلام اني انطق بلسان  
الناقم او الخاقد انما انا انطق بلسان الناصح الموجه ومثلي كمثل ولد  
علمه ابوه الطب ولحق اباه مرض عميد فاستدعاه وسأله راية فقال له  
ما يعلم ويعتقد .

ولا يخطرن ببالكم اني اقول هذا القول المحزن جزافاً  
وارمي حل الكلام على غاربه انما اقول ما اعتقد واقرر ما ايد  
صدقه لدي الاختبار وقد ولد ذلك الاختبار في نفسي ادلة وبراهين

يستحيل تقضها ويصعب دحضها

صصص  
رأيت ان في الامم الراقية اربع علامات لا تخلو منها امة وان  
خات من بعضها لا تخلو من معظمها ويكون فيها جرائم بعض تلك

العلامات ان كان ذلك البعض خفياً .

العلامة الاولى التضامن الجنسي والثانية ظهور افراد لدى الشدائد  
والازمات ينبرون ظلمة الشك ويقضون على عوامل الضعف وينهضون  
بالامة نهضة ممدوحة تستجديها ما فقدته في كبوتها والعلامة الثالثة  
تفاني قواد الراي في المنفعة العامة وتلاشيهم في خدمة الامة وبعبارة  
اخرى موت عاطفة الاثرة من نفوسهم والعلامة الرابعة ظهور آثار  
النشوء والارتقاء في افراد الامة تلك العلامات الاربع ما خلت منها امة  
الا كان ذلك ايذاناً بموتها ودليلاً واضحاً على دنو اجلها ودمارها

اما العلامة الاولى وهي التضامن الجنسي فرابطة لا يجمل نفعها  
لاني اذا لم تربطني بجاري رابطة غير الجوار كصحة متينة او نفع  
مشترك دائم لا يسوءني ما يسوءه ولا يسرني ما يسره الا تظاهراً وبجاملة  
كذلك اذا لم تربطني بأبي رابطة سوى انه انفق علي في طفولتي  
وسهر علي في فتوتي فلا يأتي يوم زوال تلك المنفعة الا وهو لي كغيره  
من الرجال اذن لا بد من رابطة دم ومبدأ وفكر او بعبارة اوضح  
رابطة تشبه ما يربط افراد الاسرة او اسرات القبيلة فاذا لم تكن هذه  
الرابطة في الامة فلا يمكن ان يوفق بين افرادها الا ريثما تهدأ العاصفة  
وهذا مجموعنا انظروا فيه حينما شتم واخصوه كيفما اردتم لانرون  
به اثراً لتلك الرابطة الجنسية وقد قال لي اجنبي عاقل لقد حاوات  
ان اعد الشعوب والامم التي تألف منها مجموع سكان الجمهورية

البنجلوسية الكبرى فافلحت في ذلك وحاولت مثل ذلك العمل في  
بلدكم فلم افلح وقد صدق هذا القائل فان فينا من كل معنى طرب  
بل توجد في الشخص الواحد آثار مائة امة وهذا راجع الى اجداده  
وآبائه ومولده والوسط الذي عاش فيه والتربية التي نشأ عليها وطباعه  
الغريزية واخلاقه التي اكتسبها فاذا كان في الفرد كل تلك العجائب  
فما بالك بالمجموع؟

هذه امة هوز لا يوجد فيها اثنان يتفقان على رأي واحد في اهم  
ماليهم من المسائل وان اتفقا في الفروع اختلفا في الاصول وليس  
هذا الاختلاف عجيبا او مستغربا انما هو نتيجة الاضطراب وهيهات  
ان ينتج التعدد وحدة او تلد الفوضى نظاماً !

هذه الجمهورية البنجلوسية العظيمة مؤلفة من عنصرين عظيمين  
الاول عنصر معروف يربط افراده الدين واللسان والطبع والمنفعة وهو  
العنصر الغيصوني والعنصر الثاني خليط من امم اخرى آوى الى رحاب  
العنصر الاول والف على ممر الزمن وتعاقب السنين عنصر اجديده هو  
عنصر الدخلاء ولما كان من ثواميس الطبيعة الثابتة ان الكل يجتذب  
الجزء كذلك تمكن العنصر الغيصوني بقوته من اجتذاب عنصر الدخلاء  
فالنحما ووقف في حروب تلك الجمهورية الغيصوني الى جانب الدرعي  
والايطالي الى جانب الاسباني واليوناني الى جانب الزنجي كلهم تحت  
لواء واحد وامرة واحدة يدفعون عدواً واحداً ويدافعون عن غرض

واحد اما نحن في هوز فهيات أن يجمعنا ما هو أشد من الموت .  
مكتبة اما العلامة الثانية وهي ظهور افراد اشداء لدى الازمات والشدائد  
فمثلها في الامم كمثل السم في الافعى والقرن في الثور والاذن في الاسد  
فهذه قوى كامنة لا تظهرها الا الاخطار ولا تخرجها من حيز السكون الى  
حيز الحركة الا الاهوال والمصائب . اصدع افعى تلذعك وهيج غضب  
ثور ينطحك وغظ اسداً يفترسك ~~كذلك~~ كذلك الامم الحية اذا اغتصبت  
حقوقها جار بتك واذا آلمتها آلمتك واذا كان بينها وبينك ثار لا تساه  
او نثار لنفسها واذا اردنا ضرب الامثال قلبنا صحف التاريخ رأينا  
مستوكل وديموستين في اثينا وهنريال في قرطاجنه وقيصر وتراجان  
في رومة ومحمد في بلاد العرب وشارل مارتيل و نابليون في فرنسا وكر ومويل  
في انكلترا ووشنجتون في امريكا و بطرس الاكبر في روسيا و متسوهيتو  
في اليابان وبيسارك في المانيا و غاريلدي في ايطاليا و كوشوت في النمسا هولاء  
الاشخاص وغيرهم ممن انهضوا الامم ولموا شعها و احيوا امواتها و اعادوا لها  
قوتها هم اسلحة الامم هم قرن تلك الشعوب و برائنها هم خلاصتها و زبدتها  
فردم بامة و واحد هم بالوف مؤلفة خذ واحداً من هولاء الابطال و اتمعن  
النظر في تاريخ نشأته تر ان فيه صفات شتى وقوى مختلفة و غرائز  
كثيرة لم تجتمع لغيره و كلها مجتمعة في امته هو لاء هم روح جسم  
الامة و قد يظهر ذلك باجلى و اعظم مظاهره اذا التقى اثنان منهم في ميدان  
فقد اتقت امتان فهما اذا تشابهتا فقد تشابه شعبان واذا اقتتلا و فاز واحد

فقد فاز عنصر على عنصر وانتصر عضو من جسم الانسانية على عضو  
آخر . ظهر كل بطل من هؤلاء الابطال في وقت بلغ فيه الضنك والضييق  
من الامم مبلغها فها هي الا طرفة عين الا انفرجت ازمتها  
وزالت مصيبتها وحسن طالعها وعلا نجمها . كلهم تقاسوا احوالا  
شداداً وعاكسهم الزمان وقاومتهم احوال لا عدد لها ولكن كلهم  
خرج من ميدان الوغى منصوراً ظافراً وكلهم خط على جبين  
الدهر اسمه باحرف لا تزول . ان موسى نبي ~~ي~~ اسرائيل وواحد من  
الما ~~ن~~ عجز عن هديهم وفشل في اصلاح شوونهم اتي بمعجزة اعجب  
عندي مما يقال عن قلب نظام الطبيعة باختراق البحر واغراق فرعون  
وجنوده هي انه اطلق هؤلاء الضالين في وادي التيه وهو بينهم  
اربعين عاماً حتى مات شيوخهم ونشأ منهم جيل بعد جيل وشعب  
جديد لا يشبه الشعب القديم ومات موسى كغيره وقد اتم عمله بعد  
موته . موسى بطل نفع قومه بموته كما نفع محمد قومه بحياته .

انظر الى بلادنا واستعد تاريخها منذ اخني الدهر على دورها  
الاول دور المجد الباذخ والعز الشامخ فهل ترى فيها واحداً من هؤلاء  
الابطال ؟ عجباً أينخلق ثور بلا قرن ويولد أسد بلا برائن . كلا لا غرابة  
في الامر ولا عجب انما هوز حيوان عجيب ليس له نوع يعرف ولا  
جنس يوصف وقد يكون من فئات الطبيعة واذا نسينا ذلك الماضي

ونظرنا الى الحاضر فاين سلاحنا؟ ان اجنبياً اقامنا واجنبياً اقعدا واجنبياً  
احياناً وآخر يميننا.

لقد ظهر فينا رجال في اشد ازماننا فكان مثلهم كمثل شبح والد  
همليت ينذر بالويلات ويشهد الهمم الى حين ثم يعود فيصير اول  
المخدواين من قومه وهم قوم ييوحون بالاسرار ولا يطلبون بالثار ولا يفرون  
اذا لاح ضوء النهار اننا اليوم وغداً في ازمة من اشد الازمات وقد وقعت  
بنا نكبة من افطع النكبات فاين السم الذي الذي تقاوم به واين القرن الذي  
نهاجم به قرننا بل اين الذيل الذي نذب به الحشرات والهوام ~~هم~~  
انه من المستحيل ان يناقض المرء نفسه ولكن الايغال في الحيرة  
يفقد المرء صوابه وقد فقد الباحثون في امر هذه الامة صوابهم وغاب  
عنهم رشدهم. وتسامح بعضهم فاستباح فرضاً مستحيلاً وقال: لنفرض  
ان لهذه البقرة قروناً وان يئتنا رجالا يعملون فهل نهم فيهم الشرط  
الثالث وهو العلامة الثالثة. هل يتفاني قواد رأينا في المنفعة العامة وهل  
يتلاشون في خدمة الامة؟

لو كان للتأكيد الف نوع لا أكدت نفى ذلك الشرط وانكرت  
تلك العلامة بسائر انواع التوكيد جميعاً.

أليس من العار ان يسجل المرء على نفسه عاراً لا يمحوه الدهر  
أليس من نكد الدنيا على المرء ان يرى في ذاته عيباً وليس له من

الاقرار به من مفر . ولكن أليس الحق أحق بان يتبع ، أليس هذا الامر  
من الجلاء بحيث لا يحتاج الى بيان ؛ أجل ان الحقيقة مؤلمة ولكن  
دواءها في الاقرار بها .

ان قادة رأينا هم الاشباح التي تروح وتغدو امامنا يخدعنا مظهرها  
ويحزننا مخبرها . ان تلك التماثيل ليست الا آلات في يد محرك  
يحركها ولا تظهر عيوبها كلها الا بمحك الحوادث وقد ظهرت تلك  
العيوب وبانت كحفر الجدرى في وجه المصاب فاغضينا وتعامينا وقلنا  
هذا القبح حسن باهر وذلك العيب جمال ظاهر .

أي لص دنيء ممن يسمون نفوسهم بالباطل عطاء وروساء  
لا يسكن قصرًا فخماً ولا يركب عجلة غالية ولا يكنز الذهب ولا  
يطير لبه وراء الرتب بل أي كلب من تلك الكلاب الرجسة لا يدعي  
غير ما يبطن ويظهر غير ما يخفي وأي فحل من فحولنا لم تغيره الايام  
ولم تبدله الحوادث بل أي خنزير من تلك الخنازير لم يقل في سره  
ان لم يقل في جهره « بعدي الطوفان » .

تسألك ايتها الاسلحة فانك لا تجرحين وسحقاً لك ايتها القرون  
فانت لا تنطحين وآسفاه عليك ايتها الامة فانت بلا مدافع شجاع  
ولا حارس امين .

اما العلامة الرابعة وهي ام تلك العلامم وبرهانها اقوى البراهين

وهي ظهور آثار النشوء والارتقاء في افراد الامة . والمقصود بتلك  
العلامة ان يكون الحفيد ارقى من الوالد والوالد ارقى من الجد . وهذه  
العلامة مشاهدة في الامم الحية الراقية فالمؤلف العظيم يخلف مؤلفاً اعظم  
والشاعر الكبير يلد شاعراً اكبر والطبيب الماهر يمنح وطنه طبيباً  
أحذق منه وامهر . وليس من الشروط المهمة ان يكون الولد في حرفة  
ايه انما الشرط المهم ان يكون ارقى منه بأية حال . واسباب ذلك  
راجعة الى روح النشوء والارتقاء الظاهرة باجلى مظاهرها في عناصر  
الطبيعة وفي حياة الانسان منذ انخليفة الى الآن . ولست اقصد بما  
ذكرت النوابع الافذاذ في كل امة فقد يرد عليّ مستقدي بان نابوليون  
اخلف غلاماً ضعيفاً ضئيلاً وان فيكتور هيجو لم يلد غلاماً ذكياً وليس  
هذا ما اقصد لان هؤلاء كما ذكرت خلاصة الامم وعم ارقى ما وصلت  
اليه الطبيعة في خلق الانسان فلا يعقل انها تخرج عن حدها وتنتج  
اعظم منهم والا كان ذلك انما لمف الاعظم هو المقصود بالذات انما  
اقصد عامة الامة واوساطها . وقد دلت التجارب والاختبار ان الامم  
في ابان نهضتها تنتج جيلا ارقى من جيل وكانت هذه النظرية من اصول  
حصر ارث الملك في الولد الرشيد .

وهذه الامة الهوزية قد دلت الخبرة فيها على عكس ذلك  
فابن اليوم اقل من والده ذكاءً واطف جناناً وخلقاً واميل الى



الذل والصق بالجهل . وكذلك حال ابيه بالنسبة الى جده وقد عرفت  
اسرة عاشرت افرادها فرداً فرداً فاذا الجدر ياضي ماهر يحل المعضل  
والمشكل ولم يكن تعلم تعليماً حديثاً فلما اخلف ولداً لم يأل جهداً في  
تهذيبه ارقى تهذيب فحاء الولد اضعف في فنه من والده ثم اخلف هذا  
الولد ولداً فلم يهمل شأنه وزاد على تربيته ان سيره على دربه وخرجه  
في حرفته بعد ان حاول ان يعمله غير علم . فلم يفلح .

وكان السكوت شاملاً والقوم كأن الطير على رؤوسهم ثم ان  
الخطيب سكت قليلاً وقال :

« هذا قولي قلته في ملائمتكم معتقدا اني اقول الحق غير هيب  
فيه اللوم والذم ومن كان لديه قول ينقضه او ادلة تفنده فاتي اصغى  
اليه وانبصحكم باتباع رأيه . »

فرايت في الجمع هرجاً ومرجاً وصعدت اصواتهم الى عنان السماء  
وانبرى كثيرون الى المنبر المنصوب . ولكن قد تولاني التعب ونزل  
الجزن بنفسي مما سمعت فاسرعت عائداً فظفت في طريقي بجبال  
شامخة ووديان خصبة وانهر عذبة .

قلت للروح الخائر : كيف تفسر هذا القول من مصلح واعظ يخطب  
في قومه فينبغيهم لانفسهم ويرثيهم على مسمع منهم . قال اظنه اراد  
ان ينهض همهم فعمد الى الاستحاث بالخويف والاستنهاض بالوعيد  
واستودعك الله ليلتنا هذه وموعدنا الليلة الثالثة .

الليلة الثالثة : خطبة النعاه والحزن

## الليلة الثالثة

### عند سقوط الشرق

زارني الروح الحائر وانا أبحث في علل سقوط الشرق ونهوض الغرب . فقال لي :

« أراك مطرقاً مفكراً كأنه موكول اليك تدير الامم ولم شعث الشعوب » قلت : « اتى افكر في اسباب سقوطنا ونهوض غيرنا من الامم » قال : « ان اخطب سهل وان من لا يرى علل ذلك السقوط رأي العيان فهو لا شك اعمه » قلت : « اني ارى بعض الاسباب وينيب عني بعضها » قال : « ان كنت ترى اهمها فهذا افضل من حال من يخفى عليه كبير الامور وتبدو له صفائرها » قلت : « وأي الاسباب اكبر » قال : « ظننتك تعرف » قلت : « اظنه ضعفاً في وقت اصبحت القوة فيه عماد الامم » قال : « كلا » قلت : « اظنه جهلنا في عهد العلم والنور » قال : « كلا » قلت : « اذن ماذا » قال : « انه بغض العظماء » قلت : « وكيف ذلك » قال : « ان بغض العظماء في الشرق اكبر المصائب التي اصابتنا ولا نزال نعمل بها على تدمير البقية الباقية من حياتنا القومية فما نبغ في هذه الامة نابغ الا جردنا في وجهه اسياف الحقد والحسد وما تركناه الا مضرجا بدمائه

فنعود على نفوسنا باللائمة وتقول لقد كان فينا عالماً في رأسه نار  
نهتدي بهديه ونسترشد برشده. نسان الوهمسة الحفدة تمار على سيدك وغان  
ردديش ان تلفه فخر شديفاً وستر سيرة الحيل

وهذه بلا ريب تقيصة من النقائص اللاصقة بالامم المنحطة وهي  
اثر من آثار الهمجية الاولى فقد كان اجدادنا سكان الاحراش  
وابناء الادغال والآجام اهل العصر الحجري يخشون ان يثبت فيهم  
فرد نباتا حسناً فيقوى عليهم وتسلطه قوته في اعناقهم او يقتال ما لهم  
وما لديهم ارضاء لنفسه الضخمة وارادته القوية وشهوته التي لا تبرد نارها  
وهذا كذلك اثر من آثار تنازع البقاء بين طبقات الحيوان السفلى  
والعليا لذا يروى الحكماء خرافة الوحوش الضئيلة التي تأمرت فيما  
بينها على الاسد وهو ملكها واشدها بأساً واقواها بطشاً لتفتك به  
وتستريح من شره. ولكن لا تلبث تلك الحيوانات ان تقتل سيدها  
ومولاها ومرجعها في امورها ومعتمدها في ضيقها ومنقدها مما يجتق بها  
وهو الذي خصته الطبيعة بقوة فوق قوتها وعزيمة اشد من عزيمتها حتى  
يقوم منها من يخلفه في بأسه وشدته وقوة بطشه وشراسته. ولا يفرغ  
الثعلب وابن آوى من دس الدسيسة حتى يشرعا في تدير مؤامرة  
ثانية للخلاص من المولى الجديد.

هذه قصة من اساطير الاولين وضعها الحكماء والمرشدون  
لتكون فيها عظة لقوم يعقلون. وها نحن نرى امامنا قوانين الطبيعة

وسنتها دائرة على محور الانتظام وسائرة على خط مستقيم ونرى تلك  
القوانين العادلة في اعمالنا نحن البشر كما نرى نور الشمس وضوء القمر  
ولكن قل فينا من اتعظ واعتبر .

هذه صحف تاريخنا السوداء قلبها كيف شئت تر من آثار  
حقدنا على عظمائنا وغيظنا من النابغين فينا وحسدنا لكل ذي نعمة  
لم تهبها لنا الطبيعة ما لا تحتاج بعده الى برهان على اثبات قرب عهدنا  
بالحياة الوحشية وتمام المشابهة بيننا وبين العجاوات .

وقد علم علماء الاخلاق هذه النقيصة بانها داء من ادواء  
النفوس الصغيرة التي لا ترى لذواتها فضيلة من الفضائل وتأبى  
ان ينفرد غيرها بالكمال . وقرر هؤلاء العلماء ان النفس الكبيرة  
تسرب بالنفس التي تشبهها وتمثلها وتشد ازرها وتناصرها ولا تتسرب  
اليها الغيرة ولا ياتيها الحقد من بين يديها او خلفها .

وهذا التعليل واضح فالنور لا ينقص النور والقوة لا تنقص القوة  
ولكن الظلمة ضرة الضياء والضعفاء اعداء الاقوياء . ولكن تلك  
النفوس الصغيرة الضئيلة لو تأملت قليلا ترجع عن غيها لساعتها فمها  
اختفى الحق لا بد من ظهور نوره .

آيتها النفوس الصغيرة ولا احقرك ولا ألومك على صغرك فقد  
ارادت لك الطبيعة ان تكوني كما انت وهيات لك شروطاً واحوالاً

وبيئات وأشخاصاً وأعمالاً وبعثت اليك بعوامل ظاهرة وأخرى خفية  
فبرزت للعالم كما أنت فلماذا يحزنك الأمر وهو قضاء الطبيعة وقدرها.  
لو كنتِ تحملين أكثر مما أنت حاملة لو كنت اليك الطبيعة احمالاً  
جهد طاقتك ولكن لكل وعاء ما يسع وليس فيك لما في غيرك متسع.  
عجباً كيف يجوز للشعلة الضئيلة ان تحسد الشمس المشرقة على  
نورها وكيف يجوز للأرض الدنيئة ان تطاول السماء الرفيعة بل كيف  
يحق للأصداف ان تحقد على الجواهر وتنكر عليها بماءها؟

إذا انفردت الشمس باضاءة الأرض على سموها وزهاء نورها  
خسر الناس ربع أعمارهم وهي الليالي التي يستضيئون فيها بالقمر  
والكواكب والانوار المبتدعة وإذا اكتفينا بالجواهر احتاج غيرنا الى  
الأصداف ولا يمكن للفرد مهما كان عظيماً وقوياً ان ينوب عن الكل.  
فيا أيتها النفوس الصغيرة انا في حاجة اليك انا نطلبك كما نطلب  
النفوس الكبيرة ولكن الطبيعة العادلة تأتي ان تستوي انت وغيرك  
من النفوس الكبيرة لان لكل نفس عنصراً خاصاً بها وعنصر ك اقل  
من عنصرها وقدر ك اضعف من قدرها .

ايتها النفوس الصغيرة اقنعي بعيشك وعملك وخلّ عنك امر  
غيرك . ان الفلك لا يدور بالاقمار والكواكب السيارة انا فيه من  
النجوم ما لا يبلغ قدر ذرة ولكن قد تضي تلك الذرة بقعة من الأرض

لا ينفذ اليها نور الشمس ولا ضوء القمر . كذلك قد تقوم نفس صغيرة بما لا تستطيعه نفس كبيرة .

× اذا قام عظيم باصلاح امة وهدى شعب فقد يقوم غيره ممن لم يقسم لهم نصيب كنصيبه بسد حاجة عيلة يعولها . ولو ارادت الشعري اليمانية او المريخ او الزهرة ان تنال منال الشمس وسارت على دربها غيرها من الكواكب اختل نظام الفلك واعتلت هيئة الاجرام وزال ما نراه من القبة الزرقاء من الابداع والاحكام . كذلك اذا ارادت نفس صغيرة ان تنال منالا غير منالها ونسج غيرها على منوالها فسد نظام الحياة وصار الامر فوضى لا قوام له ولا قائمة .

٤ يقول صغار العقول وضعاف الاحلام هذا العظيم الكبير يستصغرنا ويحتقر شأننا وبشمخ بانفه علينا ويدعي بانه ليس منا ولو كان متواضعا حملناه على الاكف والاعناق .

٤ نقول كذبتكم وانتم على انفسكم شاهدون لو كان متواضعا وطأتموه باقدامكم واخذتم تواضعه حجة عليه لاله وكم من متواضع بيننا يؤخذ برجله ويجر وهو جدير بان يؤخذ بيده ويبر . اما كبرياءه وشموخه فدعوها ودعوه فهو ليس منكم دعوه ان في نفسه نورا ليس في نفوسكم دعوه ان في فؤاده نارا لا تشعل افئدتكم دعوه ان في روحه من الكبرياء ما لا تطيقه نفوسكم الا يكفيكم انه يعيش بينكم في ذلك العالم

المملوء بالمعائب والاقذار الا يكفيم انه يرشدكم ويهديكم؟ كيف  
تكلفون النفس القوية ان تلتئم مع الجسد الضعيف بل كيف تريدون  
من الطبيعة اكثر من ان تجمع بين النار والماء في وعاء.

يا ام الشرق تناديك نفس موجعة ويستغيث بك روح حائر.  
فاسمعي وعي. ان هلاكك في تدابرك وتباغضك وتنافرك. يا ام  
الشرق كفاك ما انت فيه من الوهن وما يتوعدك من ضروب الدمار  
والهلاك. انك كالحية سمها كامن في بدنها ولا يؤذيها ما دامت  
لا تنفته فيه. ابها الامم مجدي عظامك دون السوى. وناصرى  
الاقوياء ينصروك.

يا ام الشرق ما مات فيك كبير الاوراءه صحيفة سودتها  
تقائصك تدل على قصر نظرك وضيق نطاق عقلك. كم من حكيم  
ذاق حنقه عقاباً له على حب العدل والحق وكم من عظيم اراد ان ينير  
لك غياهب الدهور القادمة فاطفأت شعلته قبل ان يضي لك محبتك  
ويهديك سواء السبيل.

يا ام الشرق ان الطبيعة تعفو وتغفر ولكن الخليم شديد الانتقام  
ومن عفا اليوم عاقب غداً. ومن غفر بالامس ينتقم اليوم.  
يا ام الشرق انظري الى الامم التي ورثت مجدك وغلبتك على امرك

وداستك تحت اقدامها وجلست منك مجلس السيد من العبد والظالم  
من المظلوم . ان تلك الامم حلت لغز الحياة وسبرت غور الطبيعة  
وعرفت كنه المسائل التي تقفين امامها ذاهلة حائرة . ان تلك الامم  
تبجل عظماءها وتمجدهم وتتخذ منهم هداية ومرشدين لا ترد لهم قولاً ولا رأياً؟  
فيا امم الشرق ان شئت ان تنالي منالها وتبلغي مجدها او تستردي  
مجدك الضائع وتقيمي ركن عزك المنقوض فاهدمي معابد البهتان وارفعي  
لكل عظيم عماداً واقيمي لكل كبير تمثالا يكون موضع السجادات .

يا امم الشرق هذه كلمة اقولها ولا ازيد عليها قد لا تصل الى  
آذانك بل قد لا تستأذن على مسامع امي التي انتسب اليها وابناء  
وطني الذين لتعي اليهم . فاذا لم تكن نصيحة تسمع وتقبل ويعمل  
بها فلتكن نفثة مصدر تفرج الكرب وآهة محزون تقال من حزن  
النفس والقلب . »

ولما ان فرغ الروح الخائر من هذا القول اخذته هزة فاختلج  
المصباح الذي في يده فقال لي وهو يختمني عني في الاثير المحيط به ومعدنا  
الليلة الرابعة

الليلة الثالثة

الحمد الربيعي

الذي رطبي علي

٢٨



## الليلة الرابعة

### غرور الناس بالناس

كنت في حيرة من الحياة اناجي نفسي تارة واعتمها طوراً  
وإذا بي أرى شعاع مصباح الروح الخائر فقلت الى ايها الروح فانك  
على حيرتك اكثر مني هدى اني اسمع في هذه الايام قولهم هذا  
هو الذوق الشائع وذلك هو الرأي العام ولست أفهم لهذا معنى .

قال الروح الخائر : « اني اذا ذكرت بعض حوادث حياتي  
الارضية وما كنت فيه من القيود المرذولة التي اقتضتها العيشة المادية  
تنفست الصعداء وحمدت الله على اخلاص من هذا البلاء وانني اذكر  
ما قاسيته من البشر وانني الجسم الذي البالي كما يذكر المتيقظ حلاًماً مزعجاً  
ولكن هناك بعض الشوون فطنت لها ونجحت علي الحقائق خلالها  
فسعدت بها وانا في الحياة الدنيا . فقد كشف لي يوماً عن حقيقة  
غرور الناس او بدعة الرأي العام » قلت : « حدثني فالعلمي اهتدي  
بقولك » قال : —

من عجائب الحياة الارضية ومن غرائب خلائق البشر ان  
نصف العالم يعيش متنكراً والنصف الآخر يعيش مخدوعاً فلا  
النصف الاول يخلع قناع التنكر ولا النصف الآخر يستشف ما  
اختفى وراءه من الحقائق المخالفة لظواهره . وليس هذا راجعاً الى

حذق البعض وغباوة البعض الآخر انما الواقع هو ان الكل قد بلغوا  
النهاية من البلاهة والغاية القصوى من الغفلة . ولا ريب في انه يصعب  
التسليم بصدق هذه القضية لاول وهلة كما انه يصعب علي ان ادونها  
لاني لست الا بعض البشر ولكنني ما دونتها الا بعد ان تحققتها  
وما تحققتها الا بعد التأمل في حالي وحال غيري ممن رأيتهم وخبرتهم .  
فكنت اذا اردت ان احكم على نفسي في شيء من الاشياء اندفعت  
افعل ما اريد بلا حساب ثم جردت من نفسي شخصاً يحكم علي ما  
اكتسبت وكنت ابدأ اذا سمعت حكم نفسي على نفسي او حكم  
نفسي وهي في صحوها عليها وهي في سكرها عدت عليها باللائمة وما  
أعد لها من الحسنات الا النزر اليسير وقد أكون في ما عددت منها  
مخدوعاً مغروراً وكثيراً ما كنت اذا سمعت حكم نفسي على نفسي  
اضحك منها هازئاً بها وبغيرها من النفوس وشر البلية ما يضحك .

وقد بقيت هذه القضية كامنة تجول في صدري ولا استطيع ان  
اخرجها لعجزني عن التعبير عنها حتى اختمرت ثم حدث المرة بعد  
المرة ما هاجها وهي ناضجة ففلتت مني قبل ان اعوقها فتركبتها  
تخرج للناس .

اما وقد مهدت هذا التمهد ليسهل عليك فهم ما اريد فيها  
انا اشرع في التفصيل .

كنت مرة في الحياة الارضية في محفل حافل بكثيرين ممن يسمون  
انفسهم اصحاب السعادة والعزة ويصفونها بالعلم والفضل والذكاء .  
فاذا دعاهم داعٍ بغيرها او اغفلها غضوا عنه الطرف وعدوا فعله اهانة  
خفتهم ومذلة اصابتهم كنت بين هؤلاء غريباً عنهم لا لاني  
لا اعرفهم انما لاني لست من طفتهم ولذا كنت خارجاً عن  
دائرهم لا يخذعني ما يخذعهم ولا يسرني ما يسرهم ولا يطيب  
لي ما يطيب لهم فاستطعت ان احكم عليهم حكماً ان لم يكن العدل  
بعينه فهو اقرب الاحكام اليه .

هؤلاء القوم دعاهم احدهم ليخطب فيهم فلبوا دعوته وفي كل  
قلب من قلوبهم ما يشغله . فبعضهم جاء ليلقي صاحباً له وفاء بوعد  
سابق وبعضهم جاء ليري الناس نوياً جديداً وبعضهم جاء ليقول  
الوقت فراراً من الضجر والبعض جاء ليقال عنه انه يدعى الى المحافل  
ويفهم ما يقوله العلماء اما الرغبة في سماع ما يقال فقد لا تتعدى بعض  
افراد قلائل .

دخلت مع الداخلين وجلست مع الجالسين واصفيت اصغاء  
الحاضرين فاذا الخطيب يقول ما لا يعي واذا نحن ندعي فهم ما لا نفهم  
كان الخطيب عالماً من العلماء مشهوراً بالفضل وقد جاء الكل  
طمعاً في شهرته واعتماداً على صيته فوقف يخطب وهو متملي غرورا

بنفسه واعجاباً بفصاحته وطلاقة لسانه واعجاز يانه ولكن السامعين  
لم يجدوا منه ما كانوا ينتظرون ولكنهم وجد منهم الاصفاء والسكون  
فاندفع يصدعنا بركاياته وبجاء مسامعنا بترهاته وكلنا شاعر بقلة عقله  
بعد ان ظهرت حقيقة علمه وفضله ولكننا والأسفي عاجزون عن نصحه.

كنت اشعر بالتململ ذات اليمين وأسمع الفاظ التأفف والتضجر  
ذات الشمال وتقرع اذني كلمات الندم على ذهاب الوقت هباء  
فاردت ان اجس نبض الحاضرين لاثبت من تلك القضية فسألت  
جاري أفاهم انت ما يقول فقال كلا ولكنني متضجر فملت الى غيره  
وقلت له ايلد لك سماع تلك الخطبة فقال لي ان ضرب السياط احب  
الى منها فنظرت الى ثالث وكنت اعرف فيه ما نسميه بالحيا وسألته  
عن فصاحة الخطيب ومقدار علمه فابتسم سمة مبهمة اساس

فدهشت نخلو هذا الجمع كله من رجل كريم النفس قوي القلب  
والارادة ينوب عن الحاضرين في التعبير عما يجول في خواطرهم بل  
كان الكل جالسين صامتين كأنهم يخشون العقاب. فمن المعلوم في مثل  
هذا المحفل العجيب؛ ايلام الخطيب وقد امتلأ غروراً بنفسه من  
ثناء الناس عليه ثناء كاذباً ام نلوم الناس وكلهم خادع مخدوع يوقع  
البعض بالبعض سعياً وراء منفعة او جبناً وخوفاً من ان يوصموا بضعف  
العقل والعجز عن تقدير الفضل وذويه؟

ان ذلك الحادث الصغير اساس كل امر كبير لان ما يحدث في  
تلك الحلقة الصغيرة بين هؤلاء، «الفضلاء الاذكياء والعلماء النجباء»  
يحدث في كل مكان. وما يصدق على هذه الامة يصدق على  
غيرها من الامم الراقية وقد تكون الشعوب المنحطة اكثر حبا  
للحرية وابتعد عن قيود التقاليد الاجتماعية من غيرها فهي من هذه  
الوجهة افضل من بلاد العلم والمدنية.

اجل ما يصدق على هذا الخطيب ومن التفوا حوله يصدق  
على الكبراء. فليس الكبير الا فرداً ساقته له المصادفات مجدا  
وابسته صروف الدهر حلالا وقلدته طوارىء الحداث مقاليد البطش  
وقد رضع الملق مع اللبن ونشأ في قوم يعظمونه لالفضيلة فيه ويهابونه  
لالبطش يتقونه وعاش في وسط كل من فيه عبيده وخدمه اذا قال  
فعل واذا امراته الطاعة منقادة فهو لا يرى نفسه عبداً الا لشهوته  
والضعفاء والصغار من حوله لا يعلمون من امره شيئاً سوى انه الفعّال  
لما يريد.

وقد يكون من طبعه الخوف من الفجاء والفرع من لاشيء كما  
هي حال هؤلاء الذين لم يعرفوا من الشدائد الا وصفها ولم يذوقوا  
من الحياة الا قصفها انما ورثوا سوء الخلق وشراسة الطبع عن

ابائهم واجدادهم الذين نشأوا منشأهم وعاشوا عيشهم . وقد تفيد  
الحماقة حيث لا علم ولا معرفة فيظنها الاغبياء عزماً ثابتاً وارادة قوية  
لا تززعها العواصف ولا تقلقها رياح الدهر القواصف . حتى ان  
الاغبياء يقصون عن غنى كبير من نوادر طفولته ان شيخاً دعاه يوماً  
وهو طفل بلقب من القاب الدلال فالتفت الطفل اليه مغضباً  
وقال : « لاتدعني بما تدعوني به أمي » ولو كانت هذه الحادثة  
لصبي من اولاد الفقراء لعدت منه قحة وخروجاً عن حد الادب  
والحياء ولكنها عن غنى كبير تذا هي موضع الاعجاب لان شخصه  
موضع الابتهاال .

وقد يكون المملقون ضجرين وهم يسبحون بحمده ويتحملون  
ضيمة وشره وهم ناقمون ساخطون . فاذا صنع بهم ماصنع وبلغ منهم  
الغيظ ونال منهم الغضب وقام احدهم يشكوه الى نفسه او ينفهم من  
غفلتهم بعد طول خنوعهم رمي بالجنون . وعلى هذه القضية قضية  
الخوف من التصريح بالحق لحفظ بعض المنافع الى حين او طمعاً في  
مغنم ضئيل او تصديق لما يقول الغير واعتماداً على اوهامه الواهية بني  
الناس بدعة الرأي العام فهم يقولون للرأي العام ارادة لاترد وقوة  
لاتصد وبتش ليس له حد . ويقولون صوت الخلق صوت الحق



جمعية الاتحاد المصري للميلتة الخامسة

بيروت  
BEYROUT, SYRIA

هدية الروح المجنونة

دنا الروح الخائر من مضجعي وهزني فهضت قال : « لقد  
اكتشفت اليوم أمراً غريباً . ان بين الارواح ارواحاً مجنونة كما هي  
الحال بين البشر » قلت : « كيف ذلك أليس الجنون عارضاً من  
عوارض الحياة الارضية » قال : « كلا انه كذلك يعترني بعض  
الارواح الثائبة التي لم تستقر بعد على حال . فقد رأيت اليوم روحاً  
مجنوناً يهيم على وجهه في الفضاء وهذا الروح المسكين لا يهدأ له خاطر  
ولا يسكن الى مقر . فلما رأني قرب مني وقال لي : « انت الروح  
الخائر العاقل وانا الروح الخائر المجنون قلت : « وكيف ذلك » .  
قال : « اني طريد الارض والسماء لانني قلت يوماً ما اعتقد »  
قلت : « ماذا قلت » قال : « خلوت يوماً بصديق لي وامررت له  
رأني » قلت : « ماهو هذا الرأي » قال : « اني سمعته يذكر  
الاخلاق والآداب والفضائل وغير ذلك من الاحاديث المتفق  
عليها » فقلت له : « آداب و اخلاق و فضائل ! ألا تزال تعتقد بوجود  
هذه الاحاديث اسمع انني اقول لك كلمة واحدة لم اقلها لاحد



سواك من قبل وفي هذه الكلمة السر الاكبر بل هي حل اللغز  
الذي تقف امامه صاغراً حائراً .

ان كل ما ذكرت لك اكاذيب مموهة واضاليل متفق عليها .

نعم اكاذيب مموهة واضاليل متفق عليها . وبعبارة أخرى هي سيئة  
من سيئات المكر البشري وحيلة من حيل الانسان اختلقها ليسود  
على اخيه وليتحكم بها في عنقه أتعرف قصة السندباد البحري أتعرف  
كيف انه لقي في احدى الجزر رجلاً عجيباً غرر به وخدعه حتى  
تمكن منه وركب كتفيه وما زال ذلك الرجل يسخر السندباد وبحرمة  
لذة القعود ولا يذيقه طعم الرقاد اذا غفا انهضه واذا تواني ركضه  
حتى فطن السندباد الى حيلته وحاول الخلاص منه فلم يأت له الا  
بان اسكره فلما لعبت الخمر برأس العلقة أخلى سبيل أسيره ولو لم  
يفطن السندباد بقي طول عمره في أسره .

ان مثل الهيئة الاجتماعية في كل زمان ومكان كمثل السندباد  
والمدعون انهم انصار الحق واعداء الباطل وابطال المواقع وحكام  
الامم واصحاب الملايين هم خلفاء ذلك الرجل العجيب الذي  
ركب اكتاف السندباد المسكين . نحن يا صاحبي فريسة تلك  
الوحوش المفترسة . نحن عبيدها واسراها ونحن مصدر خيرها

و ثروتها نحن مصدر بطشها وقوتها لا تدعش ولا تدعز ! ان  
كنت اكتفيت بقراءة الكتب وسرك مرأى الظواهر فانك  
لا تستطيع معي صبراً . بل اضطر لان استميتك عذراً واقول  
لك لقد اخطأت وسبقتي اللسان الى القول فلم افقه معنى ماقلت  
وكفى . وان كنت قرأت الناس وعلمت ماخفي من أمورهم  
فانا اسألك أمراً واحداً ارجع بنفسك الى الماضي وسلها عن عاشرتهم  
من اهلك واصحابك ورفقتك واحبابك وقل لي ايهم لم يسع الى غاية  
تهمه وغرض يريد . بل ايهم بذل نفسه او ماله او شرفه ليتخذ  
غيره ما لم يكن له وراء ذلك البذل امل يود تحقيقه . بل ايهم ليس  
له سر يكتمه وخبر يخفيه ايهم لم يخدع الناس ايهم لم يخدع نفسه  
ايهم اذعن الى الحق الا مرغماً مضطراً ايهم لم يغير ما بنفسه  
سراً وجهراً ايهم صدق في القول واخلص في العمل واعتقد  
ولم يأكله الناس لحماقته وجهله . وايهم لم ينجه الكذب من  
اللوم ولم يتفذه الرياء من محالب الفقر ايهم اشبع جائعاً الا  
طمعاً في دار تجري من تحتها الانهار او خشية ان تلحقه الفاقة  
في آخر النهار ايهم حقن دماً يري في سفكه خيراً له وايهم صان سراً  
يجد في كتفه ضراً او حرص على شرف امن في ثلثه اراقه الدماء  
ان هناك لا ريب قرأ قليلين تحاجني بهم وتستند في تنفيذ قولي

عليهم ولكن كل ما ا قوله عن هذا النفر هو انك لم تعرف دخائلهم  
ولم تسعدك بمصادفات برفع الستار عنها .

تقولون شرف وفضيلة . . فما هو ذلك الشرف سوى الالتاب  
الفارغة وتلك المظاهر الباطلة ا رأيت رجلا كاملا لا ينطق الا بيمين  
ولا يفوه بفحش القول كان على رأسه ملكين كيمين يكتبان ا رأيت  
كيف يأنف اذا اغتبت لديه عدوه اسمعته كيف يأبى عليك ان تمدحه  
في وجهه ؛ انه يا صاحبي ممثل حاذق امكنه ان يستر حقيقة شخصه  
بغشاء من الرياء والتفاخر انه ادعى الفضيلة ولعمري ما وضع الواضعون  
اسما بغير مسمى اغرب ولا اعجب من هذا الاسم فانه يتضمن كل  
شيء ولا يدل على شيء ، وليس ذلك بعجيب ا رأيت تلك الفتاة  
التي احمر وجهها خجلا اذا نطقت امامها باسم الحب ا رأيتها وهي  
بين ذراعي حبيبها بعد ذلك ببرهة تبثه لواعج الشوق وتلو عليه  
آيات الغرام هذه يا صاحبي هي الفضيلة هذا هو الشرف لكن  
كما يفسرها الرجل العجيب الذي ركب كتفي السندباد لا كما  
يفسرها السندباد بذاته .

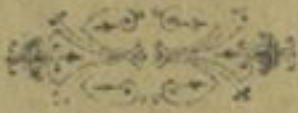
ولكن لماذا نلوم الناس ونعتب عليهم أليسوا بشرًا أليسوا  
قطيعًا من الحيوان كان يدب منذ مائة قرن في الأدغال والأحراش

ولكن لماذا تتظاهر بما لا يبطن ؟ نظام الهيئة الاجتماعية يقضي بذلك  
وما هو نظام تلك الهيئات الاجتماعية سوى قواعد وضعها الانسان  
للانسان وصيره بها اسيراً على مدى الدهر والازمان ضعيف الخول  
والطول حقير الرأي والعقل . ان هذه الحيوانات المستترة وراء  
الحلل الفاخرة والحلي الغالية سئمت ذلك الاستتار واصبحت تبجل  
الصادق الامين والوفي الحر لان صاحب تلك الصفات نادر ندور  
الكبريت الاحمر في ذلك العالم الطويل العريض . فلماذا لا نخلم  
كلنا مرة واحدة رداء الرياء ونطلق النفاق طليقة بائنة وننسى الماضي  
ونسير في طريقنا كما يسير اخواننا في الاجامات والغابات بلا كذب  
ولا خداع ولا نيمية وبلا الالفاظ الخلابة الباطلة .

لا أريد ان اقلب نظام العالم او اعطل سير الفلك بل يخيل لي  
ان الشيطان يخجل اذا ظننته ملكاً طاهراً فكيف لا يخجل نحن ممن  
يجلنا ويعظمنا ويكرمنا ويسجد امامنا ويبدل نفسه مرضاة لنا اذا كان  
لنا ضمير فتمى يوثقنا وان كان هناك جزاء فتمى يكون ؟ واذا كانت  
الانسانية تسير سيراً حيثاً نحو الكمال فتمى يكون الوصول ان كانوا  
صادقين وان كنا نسير سيراً سريعاً نحو الدمار فتمى يكون البلوغ  
ان كنا بالغين !!! »

قال الروح الحائر فلما سمعت هذا القول : قلت له : « لا شك  
 انك ايها الروح مجنون . اتظن هذه الاقوال حقاً وهي عين الباطل .  
 ففقهه الروح المجنون وقال : « وانت كذلك لا تزال مخدوعاً  
 وسوف تفقه معنى هذا القول . واحسرتا . لقد التمت الانصار  
 في الارض فلم اجدهم وها انا التمسهم بين الارواح فيصفوني  
 بالجنون . ان جنوني خير من عقلكم وخيالي اصدق من حقائقكم .  
 فاعرضت عن الروح المجنون وجئت اليك اتقل حديثه .

اللله الملائمة  
 الدعوات والارباب  
 نصر البسيفي يسير على البسيفي  
 ٧





## الليلة السادسة

### نرجس العمياء

جاءني الروح الخائر باكياً . فقلت : « ماذا يبكيك ياروح العزيز » قال : « تبكيني ذكرى مؤلمة » قلت : « وماهي » قال : « ذكرت اليوم اني خلفت على الارض نفساً زكية في جسم فتاة شقية . الا انها من بنات الجنة وهي لانزال على الارض بل اني التمس من يماثلها في السماء فلا اجد » .

قلت : « ومن هي هذه المخلوقة الانسية التي حوت تلك الصفات الروحانية » قال : « انها نرجس الضريرة عرفتھا ايام صباي في الحياة الارضية فاذا ذكرت السعادة وخالو البال وراحة القلب وفسحة الآمال على الارض ذكرت تلك الايام البعيدة السعيدة . تلك الايام البعيدة القريبة بعيدة لانني كلما نظرت ورائي الى الحوادث والكوارث وغرائب الاقدار ومدهشات الليل والنهار رأيتها جميعاً كالجبل العالي يفصل بين واديين الوادي الاول هو وادي الماضي وفيه تذكارات الطفولة والوادي الثاني هو الذي اعاني الآن التيه في قفاره واحاول الخروج من آجابه وادغاله ولا ادري الى اين ولكن

اذا نسيت كل مصائبي واسدلت ستاراً على همومي واستسهلت  
الصعب واستهنت بالاحزان مما مضى رأيت أيام الطفولة أقرب شيء  
الى قلبي فكانني ابن الامس وكانني الساعة وانا احادثك اعبت  
برمل البحر وامتع ناظري بمنظر غروب الشمس او اشرف آذاني  
بصوت المؤذن قبيل الفجر .

ليس ذلك كل ما اذكر من تلك الايام بل ان في قلبي صحفاً  
منسية وكتباً مطوية لم يأن قبل الآن اوان نشرها وتلاوتها . بل  
لا اكون مبالغاً اذا قلت ان في صدري عالماً صغيراً لا ينقصه شيء  
مما في اكبر العوالم ففيه الفرح والحزن والضحك والبكاء والشجي  
والطرب .

ومن اشخاص هذا العالم العجيب طفلة عمياء لا ازال اذكرها  
وان انساها واسمها نرجس . وكانت تلك الفتاة يتيمه تعيش مع  
جدة لها عجوز احناها الكبر واخني عليها الدهر ونال منها الفقر منالاً  
تعيش مع تلك الابنة في غرفة صغيرة مظلمة ضيقة في بيت من  
البيوت المجاورة لبيتنا . اما العجوز فكانت ذات شم وعفة لانها  
ابت احسان المحسنين وفضلت ان تبيع الحلوى للاطفال في الارقة  
على ان تستجدي . وكانت من الرحمة بحفيدتها والاشفاق عليها

بحيث لا يهنأ لها بال ولا تستقر على حال مادامت نرجس تطلب  
حاجة أو تشتهي شيئاً . ومن المناظر التي لاتزال في ذهني صورة  
تلك العجوز الفاضلة تحمل حفيدتها على اكتافها والطفلة العمياء تنظر  
الى العالم بعينين اخذ الله نورها وعلى شفيتها المرجانيتين ابتسامة  
كابتسامة الملائكة والمرأة تسير على مهل وهي لابسة ثياباً لاتدراً  
برداً ولا تستر جسداً وبين يديها صندوق من الخشب فيه اصناف  
شتى من الحلوى والألعاب الاطفال وهي تنادي الاطفال بصوتها  
الضئيل الضعيف الخافت وتدعوهم الى شراء ما يديها . فتقف تارة  
ويلحقها التعب فتجلس وكانت اذا جلست ضمت نرجساً الى صدرها  
وقبلتها وكان تلك القبلة تذهب بما اصابها من التعب فتعود اليها  
قوتها ويتجدد لها نشاطها .

اما نرجس فكانت طفلة في الخامسة من عمرها نحيفة البدن  
جميلة الوجه وكان لها شعر يشبه المسجد في لونه وحسنه وكان ثوبها  
على فقرها نظيفاً وكانت جدتها تتودد اليها فوكلت الي أمر تسريح  
نرجس ريثما تشتري من السوق بضاعتها فلما دنوت من الطفلة  
وكنت اشفق عليها من زمن طويل لاطفتها وداعتها حتى اطمانت الي  
ثم مرت بها فقالت لي همساً سر الهويناء والا اعثر بحجر فأسقط على



الارض لانني لا ابصر وتأوهت الفتاة فأثرت تلك الكلمة بنفسي  
تأثيراً شديداً وسرت بها لا اتقل قدمي حتى تنقل قدمها ولا انظر  
في طريقي الا لازيل ما في سبيلها من الاحجار الصغيرة ولو  
استطعت حملها لحملتها ولكنني خشيت ان تسقط جميعاً وما زلت  
سائراً بمرجس ويدها في يدي انظر الى السماء والى جبينها الواضح  
وعينيها المغمضتين حتى بلغت بها شاطئ البحر فلما شعرت بمرجس  
بالهواء قالت لي أين نحن فقلت لها نحن على شاطئ البحر قالت وهل  
بلغنا الماء قلت لها كلا . قالت اجلس بنا هنا لانني اسمع صوتاً يخيفني  
فقلت لها هذا صوت الامواج وهي بعيدة منا قالت لي وماهي الامواج  
قلت لها انها قطع كبيرة من الماء تلمع الشاطئ ثم تنكسر فقلت لي  
وهل البحر كبير قلت لها نعم لا تصل عيني الى آخره قالت وهل ترى  
السفن قلت نعم قالت وكيف هي قلت هي كالطيور البيضاء قالت لي  
وكيف الطيور قلت لها للطيور اجنحة تطير بها في السماء قالت انك  
ترى كل هذا وأنا لا ارى انني اشعر بالبرد فقلت لها اقربني مني  
فقربت بمرجس مني ووضعت رأسها في حجري ووضعت يدي على  
جبينها وبقيت هكذا زمناً طويلاً وهي لا تنبس يئس شفة وأنا أقلب  
طرفي بين وجهها الهادي وبين البحر الهائج ولست استطيع ان اصف  
السعادة التي شعرت بها وتلك الطفلة الضريرة نائمة في حجري وكانت

نفسى تحدثني بأنه منما طال رقاد نرجس وهي مستريحة فأنا لا أتعب  
ولا أمل لانني أحسست بأن راحتي وسروري في راحة تلك الطفلة  
اليتيمة العمياء وسرورها ولما اغربت في النوم كنت أقبلها بحنو ورافة  
ما شعرت بمثلهما نحو انسان طول حياتي . كان الرمل تحتنا والسماء فوقنا  
والبحر أمامنا والنسيم العليل يهب علينا من الشمال وقد خيل لي انني  
لا أطلب شيئاً بعد اليوم سوى نرجس تأتي معي الى شاطئ البحر  
وترقد في حجري مطمئنة الي كآتبي شقيقها أو حبيبها منذ القدم .

لست أدري لماذا كنت اشعر بسرور عظيم لاستسلام تلك  
الطفلة واطمئنانها الي فهل كان ذلك لان نفسها كانت تقاسم نفسي  
بعض همومها وقد تدرك النفوس مالا تدرك الاجسام او لاني لم يكن  
لي اخوة ولا اخوات فلم اسعد بعشرة الاطفال الا لتلك المرة . او  
لان ارادة الرجل اقوى من ارادة المرأة وتظهر تلك القوة حتى في  
الاطفال فيفرح الطفل اذا سكنت اليه طفلة مثله وارتاحت الي  
عشرته .

كنت أشعر أن نرجساً صارت ملكي ومتاعي قلبها قلبي وجسمها  
جسمي ووددت لو انها تستعيب بنظري عن نظرها قبرى ماتروقي  
رويته وتمتع نفسها بمنظر البحر والسفن التي سألتني عنها ولم ادر كيف  
أجيبها .

كنت اذهب في كل يوم لارى نرجساً واشتري لها ولي من  
الخلوى التي تبيعها جدتها . وكانت جدتها كلما أرادت ان تغيب عنها  
تستودعني اياها . وكانت نرجس اذا سمعت صوتي زال السكون  
من جبينها وعلت خديها الجميلين حمرة السرور وجاءت الي تجري  
فاخذها بين يدي واسير بها الى شاطيء البحر ولما استأنست بي كانت  
تطلب الي ان اقص عليها بعض القصص فكنت اتلوعليها ما يحضرني  
مما سمعته ولما علمت شغفها بتلك الاحاديث كنت اقضي تنظراً  
من الليل في اعداد القصص العجيبة لاعيدها على صديقتي الصغيرة  
التي كانت تنتظرها بفارغ الصبر وكنت اذا انتهيت من قصة ابتسمت  
وقبلتني ثم طالبتني بقصة اخرى وفي يوم من الايام خطر ببالي خاطر  
عجيب وهو ان اسأل عجوزاً في بيتنا عن قصة فيها ذكر طفلة عمياء  
فكذت قريحتها وروت لي حديثاً محزناً فيه ذكر طفلة عمياء ولدتها  
امها وتركتها يتيمه وحيدة فقاست الطفلة من الآلام والاحزان  
ماقاست حتى كبرت ونمت وكانت تسير في الطرق وتغني بصوت  
شجي فيجود عليها الناس بما تقوم به اودها وقد رآها ابن الملك من  
نافذة قصره فغن الى صوتها واعجب بجمالها فدعاها الى القصر واسبع  
عليها ذبول النعمة وتزوج منها ( ماأسعد تلك الايام المطوية التي كان  
فيها الملك يقرب السائلة من عرشه ) وقبل ليلة زفافه بها جاء الي

القصر طيب هندي ينطق الالبكم ويسمع الاصم ويشفي الالكه  
فطلب منه ابن الملك ان يشفي زوجته الجميلة فعالجها وشفاهها !

فلما سمعت تلك القصة قضيت ليالي ونفسي تحدثني بان نرجساً  
يتم لها ذلك في صباها وانها تشفى مما اصابها فتستطيع ان ترى ما يراه  
المبصرون ولما كان الصباح أسرع الى بيت جدتها فلما سمعت نرجس  
صوتي أسرع اليّ وطلبت ان اسير بها الى شاطئ البحر فاخذتها  
وسرت بها حتى بلغنا مكاننا الذي اعتدنا الجلوس فيه فجلسنا قليلاً ثم  
طلبت مني نرجس ان اقص عليها قصة فاندفعت كالسيل الجارف اروي  
لها حديث السائلة المصرية التي تزوج بها ابن الملك وشفاهها الهندي .

ولما كنت اصف ملاقه المسكينه من صنوف الشقاء وأنواع  
المصائب والمتاعب اتقبض صدرها وظهرت علام الحزن في وجهها  
ولما بلغت اشد ما قاسته فتاة القصة من الاهوال قلت : وفي ليلة من  
ليالي الشتاء دخلت السائلة مدينة كبيرة وفي يدها عكاز تقيس به خطاها  
وتجس به اديم الارض وكان البرد قارساً والسماء تمطر والبرق يلمع  
وكانت الفتاة لم تبلغ منذ يومين فجلست الى جدار وأخذت تبكي  
وتندب حياتها وتستعطف الناس بصوت شجي ولكنها لم تنل ما تدفع  
به ألم الجوع لانها كانت في طريق مهجورة لا يمر بها احد وهي تظن

ان الناس نمر بها ولا يشفقون عليها فاخذت تبكي بكاءً مرّاً وقضت  
ليلتها في العراء على سغب ترنجف من البرد وتلتوي من الجوع.

فلما سمعت نرجس هذا الكلام بكت ووضعت يدها على فمي  
وقالت : « لا تقل لا تقل » فقلت لها : « اسمعي فانها بعد ذلك  
نالت من نعيم السعادة ما انساها بلاء الشقاء فكفكفت نرجس  
دمعها واصغت فاسترسلت في حديثي حتى اتممت شفاء الفتاة فابرت  
اسرة نرجس وقالت لي بصوت الحزين واين هذا الطيب الهندي  
الذي شفاها وانا ظلمة عينيها فقلت لها لست ادري يا نرجس قالت :  
« ولو علمت مكانه هل تاخذني اليه ؟ قلت : « نعم فقبلتني في اذني  
لانها لم تر مكان القبلة من الوجه .

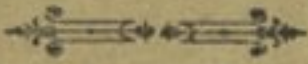


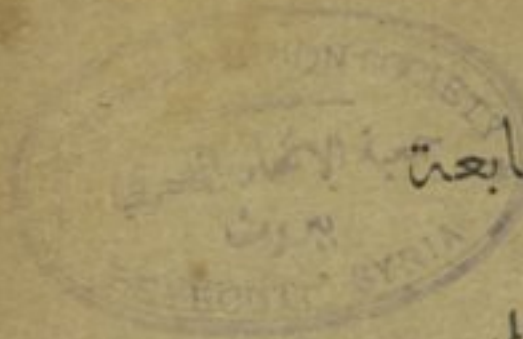
ودامت صداقتنا حتى فرق الدهر بيننا فانتقل من كان يعواني  
وانتقلت معه من ذلك الحي وودعت شاطيء البحر وصوت المؤذن  
وودعت نرجساً وجدتها ، وودعت تلك السويعات السعيدة  
التي كنت اقضيها مع شقيقة روعي على الرمال الصفراء اقص عليها  
الاحاديث العجيبة وامتع نفسي بقر بها . وودعت تلك الروح الطاهرة  
وذلك القلب الحزين وودعت طفلة بائسة لم تجن ذنباً ولم تقترف اثماً .

ولدتها امها عمياء وهات ابواها وتركها لعجوز فقيرة لا تستطيع ان  
تعول نفسها . قال الروح الخائر :

هذه صحيفة من الصحف المطوية حفظها الغواد في ثيابها  
وطواها القلب فيما طوى من الصحف التي تعيد الي تلاوتها ذكرى  
سعادة الطفولة وشقائها قلت : « وما الذي هاج الذكرى » قال :  
« مررت اليوم في طريقي اليك بمجر كبير تمر به السابلة والعجلات  
وكان البرد قارساً فاذا بي اسمع صوت امرأة ترتل القرآن فدنوت  
من مصدر الصوت فاذا بي ارى امرأة في ثياب رثة قد اقترشت الثرى  
وبجانها طفلان فبينت وجهها فاذا هي نرجس ولم استطع ان انقذها  
من وهدة الفاقة بعد ان تجردت من المادة . فقم لساعتك وانقذ من  
الفقر تلك النفس الشقيقة الشقية » .

الليلة  
ساعة الاحياء  
عاقبة المراء  
على شمسها  
نفسه  
(نفسه)





# الليلة السابعة

صديقي علي

زارني الروح الخائر قال : « هل رأيت نرجساً » قلت :  
« نعم رأيتها » .

قال : « اني اليوم حزين بقدر حزني امس . »  
قلت : « هذا يسوئي وماذا حدث فزاد غمك » قال : « لقيت  
اليوم روح صديق قديم » . قلت : « من هو » قال : « روح علي »  
قلت : « ومن هو علي » : قال انه صديق عرفته في ايام الصبي ايام  
كنت امرح في نعيم الفتوة واسرح في واد من الهناء . في تلك الايام  
التي بدد الدهر اوصالها اذ كان كل كوكب في نظري قرآً وكل زهرة  
وردة وكل مسرة سعادة لا تنتهي وكل كلمة قيلت همساً سرّاً لا ينسى  
وكل بسمه دليل اخلاص ابدى

هذه ايام الصبي التي ذهبت عني وولت كما ذهبت عن غيبي من  
الأوائل والأواخر فبكتها القلوب والنواظر ورثاها كل كاتب وشاعر  
واستعادها كل شيخ هم ولكن قلب الشباب قاس اضم فلا يرق

لحال شك ولا يسمع صوت باك . لا أبكي الشباب على الأرض ولا  
استعبده فقد كانت همومه عندي اعظم من مسراته وحسناته اقل من  
سيئاته . ولو لم يكن في الشباب من عيب سوى حماقته وجهله لاستعدت  
منه بالشيخوخة والهزم .

ولكن كان لدي اسطر في قرطاس كلما قلبت فيها اجفاني جادت  
عيوني باللؤلؤ الرطب على صديق عرفته في الصبا ذبلت زهرته وذوت  
نضرتة قبل ان اعرفه حق المعرفة . مات هذا الصديق قبل ان ادرك  
معنى الصداقة وقبل ان افقه معنى الاخلاص فلما شببت وادركت معناهما  
بكيتة ولا ازال ابكيه وقات لو اختار الاخلاص والصداقة شخصاً  
يسكنان قلبه كان صاحبي ذلك الشخص .

كان صاحبي هذا عبداً اسود واقول عبداً مفاخرًا لانني وجدت  
فيه حراً رفيع النفس عالي الهمة ويا حبذا لو كان في الاحرار له مثل  
كان لهذا العبد سيد ونعم العبد وبش السيد واظنه كان طيباً  
اتي بتلك الجوهرة السوداء من بلد باقصى النوبة معظم اهله من العرب  
روى لي صاحبي ان اياه واهله يملكون سفناً ولهم تجارة  
حسنة وان الطيب خدعه وسلب له وحسن في نظره عيش المدنية  
وكان قلبه اذ ذاك قلب قتي لا يفرق بين الحق والباطل ولا يميز



بين الصدق والكذب فبهه حسن قول الطيب وفر معه فراراً رشم  
انف اهله وكانا في سفينة من سفن الجيش فمعجزوا عن رده .

سافر علي مع هذا الطيب وهو لم يبلغ حد الفتوة ولكن جوانحه  
كانت تضم نفساً كبيرة وقلباً كريماً وقد خاناه وغدرا به ولم يحدثاه بما  
سوف يلتمى من صنوف الشقاء وانواع العذاب الاليم .

روى علي قال : فلما بلغنا مصر عني الطيب بتهديني وتعليمي  
لما رآه في من الاقبال على العلم والتفاني في طلبه وتركني اسرح مع  
اطفاله وعدني منهم . وكانت له زوجة كريمة ترق لحالي وتراف بي .  
فاحببتها واتخذتها بديلة عن امي وأهلي وتسليت عن اخوتي بابناء  
الطيب ولكنني ما اوشكت ان ابلغ مبلغ الصبي حتى تنير الطيب  
علي وكنت اذ ذاك اعمل معه في فن الكيمياء واعاونه في عمله . فلم  
يكن لي هم الا تحليل العناصر وتجهيز انواع الدواء وعمل التجارب  
العلمية التي هدني اليها كتب علم الطبيعة . وكنت كلما تقدم سني عاماً  
ازددت غمماً وهماً لسبيين الاول اني كنت ارى نفسي في موضع  
لا يليق بها واثاني لما طرأ علي من ضعف البدن عقيب تغيير الطقس  
والمناخ . ولكنني كنت اجاهد جهدي واكافح ذينك السبيين وأقضي  
وقتي في تعلم ما أهمل الطيب تعليمي اياه . حتى بلغت من الطب

والكيميااء درجة ارتحت اليها ورضيت بها . وعند ذلك شعرت بقليل  
من راحة القلب . لان مكاني في بيت الطيب كان مبهماً غامضاً  
فلا انا فرد من افراد الامرة التجيء اليها اذا ارغمتني الايام ولا انا عبد  
اباع واشرى كما تباع الانعام ولا انا حر مطلق افعل ما اريد كغيري  
من الناس . سيما وقد نهاني الطيب عشرة بنت له كانت يافعة وقد  
قطعنا امد الطفولة معاً ودخلنا باب الصبي جنباً الى جنب وخرجنا من  
الصبي هي الى الشباب وانا الى الرجولة . فحجبها الطيب ونهاني عن  
عشرتها فانهيت . واذ كر اليوم الذي دعاني فيه الطيب اليه وقال  
لي يا علي آن لزيدة ان تحتجب وآن لنا ان ننظر في امر تزويجها بمن  
هو كفوء لها فلا يجوز لك منذ اليوم ان تراها او تعاشرها . فاجبته  
بالرضى ونفسي تكاد تحترق وقلبي يوشك ان يمزق .

في هذا اليوم حصحص الحق وزهق الباطل وعلمت اني عبد وان  
زيدة حرة وانني لست كفواً لها .

فلما بلغت غايتي من الطب والكيميااء شعرت بنسيم الحرية وقلت  
في نفسي لو لم الق من الطيب ما اود تركته والتمست الرزق من  
مورد غير مورده . وهكذا اثر العلم يجعل العبد حراً .

وكنت اقضي زماني في قراءة الكتب ودرسها والتفكك بمطالعة

قصص شتى • واجد لذة كبرى في معالجة المرضى وتخفيف آلام  
الجزائى والمساكين وكان لي في ذلك عزاء وسارى ولكن قلبي لم  
يكن يستقر على حال ونفسي كأنها في وادي التيه هائمة •

وكلما كبرت سنة شعرت بمطالب وحاجات لم اكن اطلبها ولكن  
الطيب كان كذلك يقسو قلبه شيئاً فشيئاً ويشتد بأسه علي يوماً  
فاذا اشتهت نفسي امرأً جديداً حاربت الطيب فيه فاذا انتصرت  
عليه نلته بشق الانفس والا بقيت بدونه فكأنني اكسب حررتي  
واستعيد حقوقي المسلوبة شبراً شبراً •

وجاء يوم كان الناس فيه في عيد لهم وليس لدي ما يسترني في  
اعينهم وكان المتدبر من المال الذي اتقاضاه لا يسد رمقاً ولا يستر  
بدناً فالتفت منه زيادة في الاجر وجزاءً على العمل فخرج معي عن  
حده وعزاً عليه ان يطلب مسلوب حقاً وقال لي : ان حياتي دين له علي  
فبهت من سوء فعله وقلت له تلك اليهود كيف تنساها وتلك الموثيق  
كيف تخونها الست انت الذي خطفتني من اهلي الست انت الذي  
جئت بي من وطني الست انت سالب حررتي الست انت مسبب  
هواني ومذاتي الست انت الذي استعبدتني وكنت حراً الست انت  
الذي حرمتني من اهلي ووطني • ثم عرتني نوبة عمديه فتاب صوابي

وقدمت رشدي • ولما افقت من غشيتي ونظرت في نفسي صحت  
عزيمتي على التحول عن مكان الذل فتحولت عنه • وذهبت اضرب في  
البلد طولا وعرضا حتى هداني الله الى طيب آخر ارتضاني معيناً  
له على عمله •

ولكن صاحبي لامي وعتب عليّ واستغفر من ذنبه ثم استعان  
باصحابي واخواني فقبلت العودة اليه شريطة أن انال ما طلبت فوعدني  
وعداً مصرياً •

قال الروح الحائر : عرفت صاحبي فوجدت منه ادباً عجيباً دل على  
طيب منبته وميلا للعلم ورأفة بالضعاف واشفاقاً على المساكين وكان  
حسن العشرة لطيف الكلام ذكي الفؤاد لم اسمعه ينطق بقول منفر  
وكنت اجلس اليه تقضي اويقات الفراغ في الحديث العذب وقراءة  
الكتب ومقارنة الافكار والخواطر وكان كذلك ممكن سرى وموضع  
ثقتي واخلاصي وكان يقص عليّ ما حدث له مع اصدقائه من صنوف  
الوفاء والمحبة وما كان يلقاه من بعضهم من الضر والخديعة وكان يبوح  
لي بحبه لزيدة وكانت تزوجت فيقول لي : كنت احبها وانا فتى لا  
اعرف الحب فكانت اذا انصرفت الى أمها بعد اللهو واللعب اقبل  
مواضع اقدمها من الارض واطع اذني على جدار حجرتها اسمع انفاسها

وهي تتردد في سواد الليل البهيم فيدق قلبي كلما تنفست حتى اذا  
تنفس الصبح نهضت وأعدنا ما كان بالامس من سرور الطفولة وسعادتها.  
ولما تزوجت كان زوجها يأتي اليّ وهو يجهل ما بقلبي منها ويقص عليّ  
اخبارها وما يشعر به نحوها وهو يظن اني جماد لا احس واذا  
أحسست لا افهم واذا فهمت لا اجسر على الكلام . وقد صبرت  
في تلك الايام صبراً يدك الجبال ولكن ليس بعجيب ممن اعتاد  
الاسر والذل في سائر صنوف العيش ان يحتملها في الحب الطاهر .  
قال الروح الخائر : وقد دامت صداقتنا نيفا وثلاث سنين ثم انتقلت  
من البلد الذي كنا فيه الى آخر لطلب العلم وكنت اعود اليه  
في المواسم والاعیاد فكان عيدي لقاء علي ولا عيد لديّ سواه  
فأسرع اليه وأقص عليه أخباري ويقص عليّ اخباره واعطيه ما  
قرأت من الكتب ويعطيني ما قرأ . ونعوض مافاتنا في ايام البعد  
بمواصلة اوقات الصفاء على ضفة نهر او في حقل من الحقول نطالع  
كتاباً او نتحدث في شأن من الشؤون . وفي عيد من الاعیاد عدت  
الى ذلك البلد وأسرعت كما دتني الى علي فلم اجده في مكانه فسألت  
عنه من يعرف اخباره فقال لي انه ذهب ويعود ثم قال لي انه مريض  
فظننت انه يشكو داء يزول . واني لكذلك ارقبه واذا بي ارى  
شبحاً قادماً لا يرى منه الرائي الا عينين براقيتين وعظاماً مغطاة بجلد

اسود . وكان الطقس حاراً ولكن الشبح يتقي البرد بنظاء من الصوف  
على كتفه وصدره فبينت القادم فاذا هو علي فوجمت لاول وهلة  
ولكنني خشيت ان يهوله امري فيحزن ولكنني لما دنا مني لم اتمالك  
نفسي فاجهشت في البكاء فلما رأني كذلك ابتسم واغرورت عيناه  
بالدموع في لحظة فكان يضحك ويلاطفتني تارة ويكفكف دمه  
تارة اخرى .

وجلسنا ضامتين لا ننطق . وما زلنا كذلك حتى فك هو طلسم  
السكوت بقوله : كيف حالك اني اسأل عنك ولكنني لا استطيع  
ان اكتب لك . وكان في كل كلمة يسعل مرة وفي كل مرة  
كأنه يقطع نياط قلبه ونظرت في عينيه فاذا هما لا تستقر ان على  
حال من الفلق كأنهما ركبنا على زئبق فقلت له : اعل ضعفك يا صديقي  
يزول قريباً فقال باسماء هيات ان يزول الداء قبل زوالي . فقلت  
خفف عليك ولا تكن جزوعاً ما هذا الا ضعف ينقضي امده

قال : تريد تخدعني كما يخدعني الاطباء . وكما اخدع نفسي .  
هذا سل يخترمني فاذا مت فاطلب لي من الله الرحمة . قال هذا  
بببات جاش وسكون . وحاولت تخفيف مصابه فلم استطع . فصرنا  
نكي ولا يجف الدمع . ولما افرقنا ابى ان يعطيني يده وقال اني اخشى

عليك العدوى وصممت ان اصافحه واقسم ان لا ابرح المكان  
الا بعد ان اطهر كفي .

••

كنت ازور علياً في مرضه في كل يوم مرة ولا حديث له الا  
ذكرى اهله وندمه على ما مضى منه في غروره وطيشه اذا طاع صاحبه  
وخلى بلاده ويود لو يستطيع فيعود الى وطنه . وكان يرثى نفسه  
بايات نظمها وينشدها بصوت اجش يقطعه عليه السعال والبكاء .

ثم جاء موعد سفري فلم اتقه خشية ازدياد حزنه لان نفسي  
كانت تحدثني بان لقاءنا سيكون آخر لقاء . وعدت بعد ذلك  
باسبوعين وسأت عن صاحبي قبيل لي سافر فقلت والى ابن فقال  
مخبري انه في بلد بعيد . قلت واي بلد لعلي ازوره فيه قال : اتريد  
ان تقف على الحقيقة قلت بلى انه مات فقال : نعم .

فبكيت حتى ابكيت مخبري وقلت هات حدثني كيف مات فقال  
والبكاء يقطع حبل الكلام : —

بعد ان سافرت بثلاثة ايام ظهرت عليه علام الصحة والقوة .  
واراد ان يقضى ليلة في بيت الطيب كعادته القديمة ولكن الطيب  
كان حرم عليه دخول داره خشية العدوى منذ اشتدت عليه وطأة الداء

فكان ينام تارة في خان واخرى في غرفة حقيرة استأجرها في اقصى  
البلد . ولما احس بالصحة والقوة قصد دار الطيب وقرع الباب ففتح  
له فلما رآه الطيب قال له ما الذي جاء بك الى هنا وانت مريض بداء  
معد تريد ان يصاب اولادي بما انت مصاب به فقال له وهو تخفته  
العبرات : انا قوي صحيح البدن . فقال الطيب انك في منتهى الدور  
الثالث من ادوار السل السريع فاخرج من بيتي . فقال له علي : ايها  
الرجل الظالم القاسي رددت الي حياتي فقد سلبتها مني وهجم على الطيب  
فصرخ الجبان وقال اأنت مجنون . ولكن علياً خاتته قدماه فسقط على  
الارض فشحج رأسه وطفح دماً ولم يقم من رقدته ولكنه كان لا يزال  
حيّاً وكان خدام الطيب قد اسعفوه فامرهم سيدهم بحمل الميت الحي  
فحملوه وقال اخرجوا به لوقتكم فخرجوا به وكان بجانب دار الطيب  
بيت انتقضت جدرانه وتهدم بنيانه فوضعه فيه . واخذ الطيب في  
تطهير ثيابه وارض داره من دمائه تلك الفريسة الانسانية . واوعز  
الى رجال الحرس بنقل الميت الحي الى غير هذا المكان ولكن لم  
يوشكوا ان يبلغوا المكان حتى كان علي جثة خامدة



هذه ذكرى ذلك الصديق الذي باع حرية ووطنه بثمن  
بمخس فشراه الموت كذلك »



قلت وكيف رأيت صديقك اليوم .

قال رأيت روحه كما كنت أراه في الايام الاولى ورأيته يصحب  
روحاً جميلاً فلما تعارفنا تواري الروح الجميل قليلاً فقال أتعرف روح  
من هذا قلت كلا قال انه روح زبيدة خرجت من العالم الارضي  
بعد ان خرجت وكنت اطلب لقاءها فالتقينا . ومر بنا روح ذو  
لون أغبر يسوقه جني في يده سوط فارتجف روح علي وقال : هذه  
هي روح والد زبيدة .

وقد لحقتني غشية لدى هذا الحديث فلما أقت كان الروح  
الخائر قد انصرف .

بإله ال  
في يدي احده يشرح  
الناس تشبه بعض الناس  
طما



## الليلة الثامنة

### الحزن الانساني

احاط بي اليأس يوماً فاستنجدت بالروح الحائر فلما أجاب ندائي  
قلت : « ايها الروح الحائر اتني من الحزن في سجن ضيق . فهل  
لديك الى الرجاء سبيل » قال : « خفف عنك ان الحزن من  
حاجات الحياة الفانية . وأغلب من ترى من الناس يائسون انما يظهرون  
القوة ويتعلقون باهداب الرجاء ويخلقون لذلك الفاظاً عذبة . كيف  
لا ييأسون وهم لا يدرون من اين اتوا ولا الى اين يذهبون وهم  
يشعرون في كل خطوة من خطواتهم انهم مسيرون . على اني منذ  
تركت الارض تركت معها اليأس ولكن قد قضيت اياماً لا ازال  
اذكرها لانها ما كان اقساها . قلت حدثني عن تلك الايام لعل بينها  
و بين ايامي شيئاً . قال :

« كنت في تلك الايام في حال يرثى لها الصفا الصلد . لا اعني  
على شيء ولا ألوي على احد . كنت حزين القلب مشنت اللب  
اذا خلوت بنفسي حدثتني بالويل والثبور فيحيط بي اليأس ويحتويني  
القنوط ويتمكن مني الوجمل مما ياتي به الغد واذا جلست الى الناس كنت

عنهم في شغل شاغل يقولون ولا اسمع وبسمعون ولا أقول فاذا  
نبهني احد جلالي الى ما يبدو على وجهي من الالم والحزن اختلقت  
له عذراً واستجمعت حواسي فراراً من سوال غيره ولكن عبثاً نحاول  
التكلى ان تضحك وهيبات ان يفرح المحزون

كنت انظر حولي فاذا كل ما كان بالامس يفرحني ويضحكني  
هو اليوم يحزنتي ويبكينني . كنت قبل اليوم ارى الخديقة ذات  
الازهار والانهار والسما ذات الشمس والاقمار والاحراش ذات  
البلابل والاطيار قدسر ناظري رؤيتها واشعر بلذة الحياة وأومن  
بالله واحمده على نعمه ويمجري في عروقي تيار الصفاء فاهش وابش  
لكل من يلتقاني لعلمى انه من بعض الآنام على اني لم أكن في  
ذلك العهد غنياً او ذا مال يقوم بما اطلب وكذلك لم اكن اقيم في  
قصر مشيد ولم يكن لي من يخفف من همي ولسكنني رغم ذلك كله  
كنت شبيهاً بالسعداء .

كنت في بعض الاحيان اشعر بانقباض في النفس وضيق في  
الصدر وكثيراً ما اذرفت دموعاً بلا علة معلومة ولكن هذه الحال لم  
تكن تدوم اكثر من يومين او ثلاثة ثم اعود الى حالى الاولى . اما  
الايام التي ذكرتها لك فكانت كلها كآبة وافكاري كلها سوداء .

وليس في قلبي مكان يدخل منه رسول الفرح • اقلب اجفاني في  
ما حولي فاذا كل انسان وكل شيء لا يروقي فلا يضحكني المهدار  
بهزله ولا يفرحني الجذلان بمجذله ولا يبكينني العاشق بشعره وغزله ولا  
يدهشني الغنى بماله ولا يحزنني الشقى بسواد حاله لقد استوى لدي الماء  
والخشب والراحة والتعب والفاقة والنشب !

هو لا اصحابي الذين كنت اسعد بعشرتهم يمرون بي ويجلسون  
حولي ولكنني لا ارى فيهم ما كنت اراه فيما مضى . لا اظن ان امرأ  
كان ينقصني لانني كنت العب بالذهب ولا ارى في ذلك مسرتي  
هل ينقصني صديق وكل هو لا اصدقاء هل ينقصني المجد وهو هباء  
هل تنقصني اسرة وهيات ان تعادل حسناتها سيئاتها لا ينقصني  
شيء ولكنني اطلب كل شيء !

ارى كل شيء في العالم غامضاً ولكن نفسي تحدثني ان لا غموض  
ولا ابهام . ان الاغرار والمجانين ومن يتبعهم من وحوش الانسانية  
يقولون عن بشرفون الانسانية بحزنهم ضعفاء الاعصاب يشكون امراض  
المعدة والامعاء ويحتاجون الى الرياضة البدنية والهواء النقي . وكنت اخضع  
بقولهم قبل اليوم ولكنني علمت منذ عهد قريب ان هذا القول الهراء  
ليس الا دفاعاً عن مبدأهم الفاسد مبدأ عبادة المادة واحتقار الروح .

لقد عاشرت كثيرين من هؤلاء الاقوياء الاعصاب الذين لا  
يشكون امراض المعدة والامعاء وخبرت شأنهم وسبرت غورهم فاذا  
احدهم يبذل النفس والنفيس في سبيل المال ولا يصون ما يسميه شرفاً  
في الحصول على الاصفر الرنان لاعتقاده انه مفتاح كل باب ومفرج  
كل كرب وفارس كل ميدان . رأيتهم لا يعرفون من مذهب ايقور  
الا النهمة والشرة ولا يشغلون انفسهم الا بما يلمسونه لمساً ويعتقدون  
بوجوده معنى وحساً وغني عن البيان ان امثال هؤلاء الوحوش يتخذون  
كل وسيلة في الوصول الى غايتهم مادامت الغاية شريفة — كما يقولون  
وانهم يقولون ما لا يعتقدون — هؤلاء الوحوش وقد سميتهم خنازير  
البشر لا يروقون في نظري ولا يقنعني قولهم . ولا يفيدني علمهم .

انتي اذكر يوماً من ايام اليأس شعرت منه بالالم ألم الضعف  
ألم المرض والموت . فخنفت هذا الشعور سائر الآلام . ان الآلام التي  
كنت اشعر بها كلها آلام النفس والعقل آلام روح حائر لا يستطيع  
ان يستقر على حال . آلام قلب مشتعل بنار تاكل بعضها لانها لم  
تجد ما تأكله .

ارادت الطبيعة ان تخفف عني فزادني المأ على الآلام ولكن الآلام  
الاخير . ان حياتي حلقة احزان اشعر بها ولا يشعر بها غيري . ارى  
الآن ان ألم الجسم عندي لذة النفس كما كنت فيما مضى ارى ان في

اجهاد الجسد راحة للروح والعقل . عن قريب تدق ساعة حياتي  
دقتها الاخيرة ويسدل الموت بيني وبين هذا العالم حجاباً كثيفاً  
لا يخترقه نظر الاحياء من اصدقاء واعداء . عن قريب يعود التراب  
الى التراب وترجع النار الى النار . عن قريب تصير الظلمة نوراً  
والتعب راحة والألم لذة والوجود الفاني عدماً عن قريب تغرب شمسي  
ويشق لي في جوف الارض مضجع ارقد فيه رقدة لا قيام بعدها .  
ولكن الشمس سوف تشرق من الشرق وتغرب في الغرب وتملأ  
العالم بالنور والحرارة والافلاك سوف تدور دورتها والارض سوف  
تخرج نباتها والناس ييقون كما تركتهم وهم بين لاه عن ميعاده مترقب  
له خائفاً وجلالاً ومتألماً ضجر يستقدم ساعته وهي لا تأتي فلا الشمس وقفت  
في سيرها ولا الافلاك عظمت عن دورانها ولا الارض ضنت بنباتها  
ولا الناس حزنت لفراق من كان بالامس بينهم يسعى .

كنت كلما استعيد ذكري الماضي تسود الدنيا في وجهي وتدثرني  
الهموم بثوب من الحزن لا ندماً على ذنب جنيته ولا خوفاً من الموت  
القادم ولكن غيظاً من عجزني عن حل الغاز هذا الوجود !

اتى انسان ولكنني لست كغيري من الناس انا تستغزني كلمة  
وتخدعني اشارة اخلاص ويفتني منظر جميل ويحزني بكاء فقير او انين

عليل . اذا شكالي حزين ناصفته قلبي واذا صفا لي صديق وهبته  
لبي اذا سمعت عن شعب ذليل او امة اسيرة وددت لو اتيتي من  
ابنائها فاقدم حباني ضحية لها فكيف بي وانا ارى ما اري اريد ان اعلم  
كل شي ولا اقدر ان اقنع بالقليل اني استهين بكل عمل اتركه  
ورائي فكيف بي اذا امت وانا لم اترك عملا يعيد شباب الوطن ويعلي  
قدر الانسانية !

تقول عواظني « الحياة لا شي » فيقول عقلي « ولكنها كل شي »  
تقول عواظني « ماذا يجدي قطع ميل في طريق لا حد لغايته ولا بد  
لنهايته » فيقول عقلي « ان قطع ميل افضل من قطع الامل » تقول عواظني  
« ما غاية المجد الفارغ اذا كان مصير صاحبه الى الفناء الذي لا وجود  
بعده » فيقول العقل « قد يكون مجد رجل نبراسا يضيء محجة امة ويكون  
فوز امة فوزاً للانسانية باسرها وقد لا يعرف المرء قدر عمله  
تقول عواظني « الموت خير من الحياة في عالم يعيش فيه النبيل العظيم  
محسوداً مكروهاً محنقراً غريباً في اهله اجنبياً في وطنه بخلص له الناس  
ليخدعوه ويمدحونه ليدبحوه ويرفعونه ليخفضوه ويعظمونه ليستصغروه »  
فيقول العقل « صه ! فما انت يا نفسي اول من عاش ومات ولم يعرف قدره  
ولا انت باول زهرة ضاع اريجها هباء ولا باول شعلة تبدد ضوءها عبثاً »  
طال امر هذا العراك بين القلب والعقل . وهبات ان تنفق النقيضان او تتحد  
الضدان . الموت مرقد الالام هو وحده يحكم بين الاثنين القلب والعواطف

كنت بالامس اريد ان يحزن لي كل من عرفني واليوم تمنيت لو لم  
يعرفني احد بالامس كنت خاملا اريد الشهرة واليوم اراني شهيراً اريد  
الخمول بالامس كنت اندب قلة اصحابي واليوم اندب كثرة الخلان  
بالامس كنت اود لو تطول ايام الحياة واليوم يحزني ان تطول .  
بالامس كنت في عين نفسي كل شيء واليوم اصبحت لاشيء لقد  
ذقت سائر صنوف الالام فوجدت اشدها على النفس واقساها الم لا  
يذوقه كثيرون ومن يذوقه مرة لا يعيش ليذوقه اخرى وهذا هو  
ضيقه امل الفرد او الجماعة واختفاءها عن عين الفكر اختفاء السراب  
عن النظر بعد تمكن الظلم من الناظر . آمال سنين تهدم في طرفة عين  
وآمال طرفة عين لا تحقق في سنين !

هذه صورة من فكري وانا على حافة القبر فلتكن عبرة من  
العبر ولكن هيات ان يكون في الناس من يعتبر !  
ثم سكت الروح الحائر وصاح ديك مؤذن بالفجر . فقلت ايه  
لك ايها الروح لقد هدمت ما بناه الأوائل والأواخر وهزأت بالصغار  
والكبار . لقد أغرقت البشر في بحر من الحزن والقنوط وتركهم  
من الحسرة واليأس في محيط زاخر .

قال : « اسمع اني الآن خرجت من ارضكم بعد ان خبرت  
امرها فلما تجردت عن المادة فطنت الى سرها . ان الحزن معدنكم



وقد عجنت الارباب الانسانية بامواد اليأس ثم أخذتها سنة فاختلس آله  
الحب غفونها ووضع في العجين خميرة الامل فملثتم به ثم خبزتم في آتون  
الشقاء وخرجتم كالأرغفة كل رغيف لقمة لآكل . انكم ابنا الندامة  
تمرحون لحظة في بساتين الرجا . وقصة آدم من الاساطير الاولى  
الخالدة لان لكل منكم تفاحة وثعبانا . انتم أيها الناس قطع الشطرنج  
والقضاء والقدر لاعبان . انتم أيها الناس صور نحركم بيد الدهر  
في ملعب الوجود الخقير . والصوت المسموع فيكم هو صوت الحزن  
الدائم والعيول . اتخذتم الضحك وهو شكل من اشكال البكاء  
رقصتم لتخدروا ابدانكم بخمر الحركات لتغيب عنكم الاحزان سكرتم  
تقتلوا الهموم طوتم لان اللهو ملجأ الضعفاء كلكم ذليل واعزكم أذلكم  
حتى الملوك على عروشهم وارباب اولمبية لها يوم تنوح فيه . ألم تسمعوا  
صوت سوفوكليس المجيد وهو عينكم الباكية وصوتكم الناعب ولسانكم  
الصائح . كالكم « الملك أديب » لان كلنكم هدف لسهام الزمان  
كلكم يتصدكم القضاء ليقضي عليكم اذا آن الآوان ان الطبيعة التي  
تدعونها جبلا وتعليقا امكم الحنون تحتقركم وتزدرىكم وتبعث اليكم  
بوحوشها واوبأها واعصارها . البحار تلتهمكم والنيران تأكلكم  
والشهوات تغري نفوسكم وتغني ابدانكم . فلاسفتكم اقلكم هم يختفون  
وراء الالفاظ التي لا يفهمون معناها ويسخرون منكم كلما ابهموا

في الآراء. نظاماتكم الارضية الموضوعة فاسدة وقوانينكم وضعها المستفنون  
بها وانتم كقطع من الغنم يهش عليه الراعي بعصاه. يا حمتي! يا طائعين  
طاعة عمياء! أيها العمي انكم لا تبصرون هكذا كان اجدادكم  
وهكذا انتم وهكذا يكون بعدكم الاحفاد ابن سقراط صاحب العقل  
الاول رسول الانبياء وشيخ الحكماء لقد جر عتموه كأس السم  
وانتم جاهلون وعيسى صلبتموه وقلم عن محمد انه مجنون. جاءكم  
الاسكندر وقيصر فجاءا شعوبكم بالسياط وجرأ ملوك الشرق والغرب  
من أرجلهم ثم جاء الملوك فاخرجوا الارباب من اماكنها المقدسة ونسكوا  
امامكم بحقوق قالوا انها من الله. اعدلكم في كل مكان معنى والفضيلة  
في كل بلد بيان. لقد طمستم وجه الحقيقة ولما تعرفوها. انما كم فكراً  
كطفل على شاطئ بحر الحقيقة يلتقط الاصداف ويغيب عنه الدر  
والجمان. سألتني عن حالكم فهذه حالكم يا بني الانسان «

قلت: « كفى كفى ايها الروح الخائر! ليس بعد هذا القول مجال.

وانتم ايها الارواح ماذا علمتم وماذا اوجدتم وراء الطبيعة وهل

حلتكم لغز الوجود؟ »

فقال « اسمع كلامي الاخيرة قبل وضوح الفجر: اتني ابقى القول

الى المستقبل وكفناك حديث الليلة في عالمكم ريثما تنأهب للوقوف

على سر الوجود انه يأتي الينا بمقدار! »

الليلة الثامنة  
العالم مبدول بالمرن والسنن  
لا يفترون شيئاً هذا  
اللو بور



زارني الروح الخائر فلما هدأ روعي بعيد روئيته قال : « اني  
قادم من مكان بعيد » قلت : « من اين » قال : « تاقت نفسي  
لروية المقابر فلم اشتته روئية مقابركم فذهبت الى بلد جميل فيه قبور  
ان لم تحجب بحسنها الموت للتقادمين عليه فهي لا تنفرهم من مضاجعهم  
الابدية وطففت بها وذكرت يوماً من أيامي على الارض اذ كنت  
أطوف بمقبرة اخرى تشبه هذه في الحزن فقد جالت في نفسي افكار  
شتى . وكسبت من اللحود عظام عظمتي » قلت : « حدثني ايها  
الروح بحديث المقابر » قال : « كنت يوماً في بلد من بلاد الغرب  
فخرجت التمس فرجاً من ضيق عراني وسرت على غير هدى  
ولست ادري كيف وجدت نفسي في طريق مهجورة لا يرى  
فيها عابر السبيل عابراً سواه الا كما يرى الضال في الفلاة ضالاً مثله  
غير اني كنت استخرت النظر في اختيارها ولما كان بين العين  
والنفس رابطة وكانت نفسي تشعر بحزن وانقباض فلا غرابة اذا  
حسن لعيني ان تسير حيث لا أرى احداً وقد شعرت بالانفراد في

أ  
ح  
ب  
أ  
أ  
تلك الطريق حتى خيل لي اني اول من سار فيها من بني البشر  
وأوشكت ان اصدق الخيال لو لا ما اراه حولي من الاشجار المنزرعة  
على حافتيها ثم رأيت في منحدر من الطريق لوحة كتب عليها  
Chemin de La Solitude اي طريق الوحدة فقلت اشهد ان  
من اختار الاسم حكيم .

سرت في طريق الوحدة وقد هدأ روعي قليلا بعد ان علمت  
انه سبقتني غيري الى هذا السبيل وشعر السائرون به قبلي بالوحدة حتى  
جعلوها اسما عليه . وما زلت سائراً حتى بلغت فسحة كبيرة تلتقي  
لديها ثلاث طرق وتفرق فاحداها تبلغ براكبها شاطيء بحيرة ليمان  
والثانية تقوده الى بعض قرى «الكاتون ديشو» والثالثة دلتني على غرة مني  
الى حديقة كبيرة حسبتها في مهبأ الامر تابعة لقصر من القصور او  
منتزهاً جاد به مجلس المدينة على الغرباء .

لما توغلت في ذلك البستان رأيت أعمدة من المرمر الابيض  
واخرى من الرخام الاسود والواحاً من حجر عليها اسماء والقاب وآيات  
من الانجيل والتوراة فوقفت بغتة باهتاً دهشاً وقلت بصوت سمعه  
الوف الالوف ممن يسمعون ولا ينطقون «اتي اجوس خلال المقابر !»  
وعند ذلك شعرت بعواطف متضاربة في صدري فخالجني السرور في

أول الأمر لبوشي على غير علم مكاناً كنت أود زيارته ثم اعتراني  
حزن لايتي ذكرت نفساً أعز عليّ من نفسي ودعتها منذ امد  
بعيد وحق لي ان اعدّها وأسفي في عداد الاموات . ثم ذكرت في  
الحال اتني في يوم من الايام ( ولا اظنه بعيداً ) سأرقد رقدة كتلك  
الرقدات يكون فيها بيني وبين الارض صخور واحجار تمنع اصوات  
الاحياء ان تستأذن على اذني وتعوق جلبتهم ان تعلق راحتي او  
تكدر عليّ صفاء وحدتي وتقطع اجلامي في رقدتي .

ثم هدأت تلك العواطف المضطربة وعدت لنفسي وساد سلطان  
العقل على جنود الخيال فاول ما حولت نظري اليه كان الجمال الشامل  
والسكون الكامل لان الوقت كان بعد الغروب بقليل وكان الجو  
غاية الاعتدال واذا اعتدل الجو في هذه البلاد سكنت الرياح وهدأت  
الطير في وكناتها وصفا وجه السماء ولما كانت المقابر على مرتفع من  
الارض فالواقف في وسطها مثلي يملك منظر البحيرة التي كانت كمرآة  
الحسناء نقاءً ومنظر الحقول الخضراء المبرقشة باشجار ذات قطوف  
دانية وثمار آن لها أن تجني ومنظر المدينة عن بعد سحيق يجلبتها وضوضائها .  
وبعد ان حولت نظري من البحيرة الى الحقول ومن الحقول الى  
المدينة ومن المدينة الى المقابر شعرت للحال برهبة او شكت من شدتها ان  
اخر ساجداً ثم احسست بأن السكينة دخلت على نفسي وان نزواتها قد

كمنت ونزغاتها سكنت وكنت قد آليت على نفسي ان ارقب ما  
يدور فيها وما يطرأ عليها ولذا استطعت ان افرق بين العاطفة الاولى التي  
جالت في صدري وبين العاطفة الثانية التي تلتها ثم شعرت باختفاء  
الثانية عن عين العقل وقد تلتها غيرها وكانت هذه العاطفة ناشئة عما  
قرأته في صباي في الكتب عن عبرة الموت وعظاته وآلامه وكنت قد  
بلغت منتصف المقبرة وانا اسير في طريق مرصوف بالصفاء وكما  
سمعت وقع اقدامي حسبت اني اقترف جرماً لا يغتفر فقد تزعج  
مشيتي هؤلاء الراقدين فنيهم من هو حديث العهد بعالم الاحياء وازعاجه  
بوقع الاقدام محرك لا كلامهم منهم قديم العهد بالارض فان هو شعر  
بقادم تأفف وتضجر .

اتصف الطريق ورأيت اني كلما توغلت ساد السواد فكأني  
كلما سرت خطوة ودعت الضياء واستقبلت الظلام فعجبت لذلك  
ونظرت ورأيت فظهر لي ان التواييت وضعت بحيث يكون أقدامها  
عهداً في آخر الطريق التي اعبرها واحدها في اوله لذا كنت أمر في  
سبيلي بموتى هذا العام ويتلوهم موتى العام الغابر وبعدهم موتى العام  
الذي قبله ولما كان على كل قبر شجرة تزرع يوم الرقدة الاخيرة  
فلاشجار التي زرعت منذ مائة عام اكبر واعظم وأغزر غصوناً واورف  
ظلام من الاشجار التي زرعت منذ نصف قرن لذا كنت كلما سرت

المرصوف صد عن الناس ٧٤ طاباً

الى الامام ملرت في ظلال تلك الاشجار التي تمجج عنى اغصانها  
آور النهار .

هذا قبر جميل من المزمرة الابيض محاط بسياج من المعدن  
الابيض وحوله شجيرات ذات زهور مختلفة الالوان وبآخرة عمود  
صغير مكتوب عليه « تذكر ولدي العزيز شارل ولد عام ١٨٩٩  
وتوفي ١٩٠٠ » اذن هذا طفل صغير عاش سعيداً ومات سعيداً  
وهذا والد من والديه رآه وليداً وودعه فقيداً وتركه في القفر وحيداً  
وليس لديه الا تلك الكلمات!

هذا قبر كبير غير محاط بسياج عليه آلة من آلات الموسيقى  
مصنوعة من الرخام ولوح كبير من الحجر الازرق كتبت عليه هذه  
الكلمات « الى هنري بوزيه من رفقائه وأبناء حرفته » انه قبر  
موسيقي عاش يطرب الناس بأنغامه حتى دعاه داعي الردى فلباه  
ولكنني أرى أفاضاً أخرى حفرت في الصخر على عجل ثم محبت  
على عجل فما هي؟ دنوت من تلك الكلمات وقرأتها بعد تعب  
طويل فقلت في نفسي تباً لك ايها المازح حتى مراقد الموتى لا تخلو  
من هذر المازحين . يظهر ان هنري هذا كان موسيقاراً في ملعب  
وكان له صديق يحب المزاح فاسترق ساعة كتب فيها على القبر

« لعل الله يبخارك ويدخلك اركستر الجنة »

سرت الى الامام قليلاً ثم رأيت عطفة تميل بي الى طريق آخر  
فلت معها ولم أوشك ان أسير طويلاً حتى رأيت عجوزين من النساء  
في ثياب الحداد وعليهما سيما الحزن الشديد وهما تسيران صامتتين  
والأولى يتكلم فلما ان بلغتاى حيتي احداهما على غير المألوف وهمست  
احداهما في أذن الأخرى فدعاني ذلك ان أتبعهما بنفاري فرأيتهما  
تسيران متلفتين فخيّل لي انهما حسبتاى صديقاً قديماً نسيهما ولكنني  
رأيت واحدة تمسح دموع عينيها بمنديلها فظننت ان فقيدهما يشبهني  
فلما رأتاى قالت واحدهما للأخرى ليته لم يمّت ! وقالت الأخرى  
لو كان هذا هو !

هنا بلغت العظة الكبرى ورأيت أجلاً القبور وهو جدث عال  
عليه جلال وليس حوله زهور ولا سباج انما نحت من صخرة تمثال  
كتاب ذو صفحات وكتب على إحدى الصفحتين الباديتين  
بأحرف سوداء واضحة « اني أنتظرك ١٨٩٩ بيريلي » وعلى  
الثانية « هاأنا ذا لوريلي ١٩٠١ » وقفت باهتاً أمام ذلك القبر  
العجيب بل ذلك الكتاب الحجري الذي قرأت فيه آية من آيات  
الحياة وانها لا تبلغ من آيات الحكمة وأي حكمة أجل من حكمة



الموت ! هاتان نفسان إتحدتا في العالم الغاني وإتحدتا في العالم الثاني  
وكما كان يضمهما فراش واحد أصبح يضمهما جدث واحد وبعد أن  
كان قلب أحد هذين الانسانيين يخفق وينقبض لفراق أليفه هدأ  
بعد ان اطمأن من شر البعد لان اللحد لا يخرج من يدخله ! ولكن  
كيف قضيت يا بيب هذين العاميين منتظراً لقد خلقت الضجر لا محالة  
ذا كان الموتى يضجرون كنت تسلي نفسك بأن صاحبك ان تخلف  
لميعاد مها كان أمد الانتظار طويلاً وأنت يالور كيف قضيت هذين  
عاميين أ كنت تذكرين كلمة رفيقك العزيز في كل يوم فتفكرين  
في الموت صباح مساء وتستبطين الفرع الاكبر وتودين لو يأتي  
مراعاً لتلحقي بزوجك المسكين أم كنت تنفرين من الذكرى اذا  
عرضت لك وتفضلين ان لا تزوري المقابر لئلا تدعوك الزيارة  
لوفاء الدين ؟

هذه مقبرة الانجليز وصلت اليها ! فاذا هي على حدة . قاتلهم الله يحبون  
الاستقلال حتى في الموت وينكرونه على غيرهم في الحياة ! قبر طفل ولد في  
استراليا وتوفي في لوزان ما بعد الشقة يا هذا الصغير ! لقد نشأت في تلك  
القارة السحيقة المحاطة ببحار الجنوب ذات السهول الشاسعة والصحاري  
القاحلة والوديان العميقة والانهر المتدفقة والحقول الغنية والاحراش  
التي لم تطرقها قدم انسان ولم يجس خلالها الا الكنجرو ووحش البقر

ولربما ولدوك في كوخ بديع محاط ببستان انيق تغرد على غصونه بلا بل  
الصباح ولربما كنت تلعب في طفولتك الاولى على ضفاف نهير تسيل  
امواجه عسجداً وحملوك الى بلاد قصبة قطعت في البلوغ اليها اشهر  
شقت عباب تلك البحار وقطعت اوصال تلك القفار لترقد على ضفاف  
بحيرة ليمان في ظلال الجبال الشاهقة . فلو علمت انك سائر الى حيث  
يخط لك مضعبك الاخير افلا كنت تفضل ان يشق لك الحد في  
ارض الذهب ؟

هذا قبر انجليزي آخر كتب عليه « عاش حراً ومات حراً » ايه  
لك ايتها الحرية فانهم يتغنون باسمك حتى في الموت ويودون ان ينسبوا  
اليك ولو في القبور !

وهاك قبر نيكولا روسي مات في عام ١٨٤٠ شهيد وطنه  
جاهد في سبيل توحيد بلاده ومات وهو يذكرها بقلبه ولسانه « نم هانداً  
يا روسي فقد وحدت بلادك واستقلت واصبح علم الحرية يخفق على  
ربوعها وكن عدوك في قصره لا يخرج من بابه وقد مجدوا ذكر  
استاذك العظيم فبالغه ذلك ان كنتم تلتقون . لقد وفق غيركم  
رجال من بني جنسك الى تحقيق امانيتكم انك لم تر بلادك  
حرة متحدة ولكن رآها غيرك فهيناً لك ولا مثالك

المجاهدين تبذلون نفوسكم في سبيل اوطانكم وغيركم يبذلون اوطانهم  
في سبيل نفوسهم انهم نخاسرون ! نم ياروسى فان امثالك كثيرون  
رحمة الله عليكم اجمعين .

العلماء  
وسى  
سمعت خلقي صوت فانس

سمعت خلقي صوت فانس تشق فواد الارض فنظرت فاذا  
انا ارى على بعد رجاين بحفران قبراً . اهلا بك ايها القادم الجديد  
لقد ودعت عالماً كله نفاق وشقاق ، عالماً كله معاص وذنوب وجرائم  
تشمئز منها النفوس النقية لا يسمع فيه الا اللغو ولا مذاق في جواره سوى  
الالام والاحزان يهضم فيه الحق ويداس فيه الضميف ويهمل وينوز  
فيه القوى يبطشه وبأسه ، عالماً يسود فيه الاندال والجهال وتقوم لهم  
دولة وصوله ويحقر فيه اهل الفضل لانهم عاجزون عن مجاراة الاسافل  
الاشرار في ميادين الخبيث والدهاء لقد ودعت عالماً يبهجون فيه منذ  
نشأته عن الحقيقة وان يجدوها ويتقون فيه الباطل ولكنهم يجدونه  
في كل زمان ومكان ، عالماً يستعبد فيه الخمر باسم الانسانية ويقتل فيه  
العاجز تحقيقاً لمذهب القائلين ببقاء الانسب وتترف فيه الاثام باسم  
الجهاد في سبيل الحياة . هذا هو العالم الذي ودعته ولست ادري كيف  
يكون العالم الذي انت عليه قادم ولكنني اعلم انك هنا ترقد هادئاً

تظلك الاشجار وتمهب عليك نسيم الصبا حاملة روائح الزهور والرياحين  
قم واعلم ان في عالم الاحياء من يحسدونك على تلك النعمة كثيرون.  
دنوت ممن يحفر القبور وهو لاشك شخص مخيف في نظر بعض البله  
والمجانين و بعضهم يتشاءم اذا رآه في الطريق او مر بداره ظناً منه  
انه رسول الموت وحامل لواء عزرائيل لا يدب الا ويقتفي اثره قابض  
الارواح ولا يزور قوما في الغسق الا والموت يبابهم قبيل الصباح  
فنظرت في وجه الرجل كأنني ابحت عن آثار الشؤم فاذا هو وجه  
حسن التقسيم ولولا خوفي من تهمة الاغراق قلت انه وجه مبارك  
ميمون فقلت له : —

عم مساء يا اخي ايفلق الباب هنا عن قريب؟

قال : يفلق الباب عند الغروب لولا مادعانا اليوم الى التأخير  
وها انت ترانا نحفر لحداً .

قلت : وهل يجوز ان يدفن الموتى بعد الغروب؟

قال : انها وحشة ابتدأت منذ أمس ولن تنتهي فلا فرق بينها  
فوق الارض وتحتها.

قلت : نعم ما تقول اسمح لي ان اسالك سؤالا يتردد في نفسي

من زمن طويل؟ قال : سل ما بدا لك .

قلت : اعيش هنا في المقبرة؟

قال : ولدت ونشأت في هذا البيت وأشار بيده الى كوخ  
صغير في متهي الطريق محاط بغصون الصفصاف وعلى بابها شجرتان  
من السرو كأنهما حارسان لا يغفلان .

قلت : او تقيم هنا طول حياتك ؟

قال : وطول مماتي ان كان للموت طول .

قلت : وما هي العواطف التي تجول في صدرك اتخزن اذا واريت  
التراب عروسا غضة الشباب ؟ قال كنت في بداية أمري أبكي على  
بعض القبور أما الآن وقد حفرت بنأسي هذه خمسة آلاف قبر  
الا قليلا فبهيات ان ابكي او اتحسر !

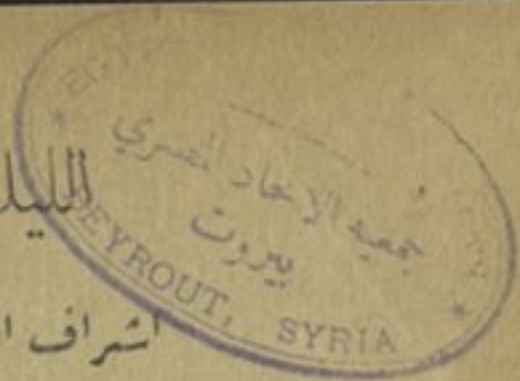
قلت : « وكيف حالك في بيتك الا ترتعب اذا جاء الظلام » .

قال : « ليس في الراقدين لص يتسلق الجدران ولا غادر يخون  
القوم وهم نيام واني هنا في مأمن من شرور المدينة ومتاعبها . ثم سمعنا  
صوت قوم يتكلمون و بصر الرجل بنعش محمول فقال لي لقد شغلني  
يا سيدي عن حفر مرقد ضيفي الجديد ثم انحنى بالفأس على الارض  
فودعته وانصرفت وكان الظلام قد خيم حتى ان القادمين كانوا  
يحملون مشاعل وانواراً فاسرعت حتى بلغت الباب ومرت وطريق  
الوحدة مطرق الرأس مفكراً فيما رأيته وسمعته في مدينة الاموات .

في ٨١  
من شهر  
٦-٢

## الليلة العاشرة

### اشراف النفس على المستقبل



كنت اقرأ كتابا في علم النفس وكانت نفسي تحدثني بانها تستطيع الاشراف على المستقبل استطاعتها الرجوع الى الماضي فلما زارني الروح الخائر سألته في ذلك قال : « أعلم ان الاشراف على المستقبل هو من معجزات الكون وسر من اسرار الوجود لم يكشف عنه لاحد ولم يوثق علمه ارفع النفوس قدراً . بيد ان الارواح اذا صفت استطاعت ان تستنير في الاستنتاج بشعاع من نور الحكمة الربانية . حدث لي في حياتي الارضية حديث عجيب سأقصه عليك . كنت اسائل نفسي دواماً هذا السؤال : —

« هل بين عواطفنا وميولنا في حياتنا وبين المستقبل الخفي الذي يضمه لنا الموت والفناء علاقة . ؟ وهذا سؤال حرت في الجواب عليه . ولكن حوادث الايام علمتني ان هناك رابطة قوية بين الحال والاستقبال وان حبلاً متيناً يربط الحياة بالموت .

كانت حياة صديقي الشاعر دي نافا وقصائده وكتبه ومنزله كلها تنبئ الخبير ببعض اسرار هذا العالم انه سيموت ميتة فظيعة وانه

لن يذهب قبل ان يرى الاهوال .

عرفته وعاشرته في بيته الجميل على شاطئ بحيرة جنيف وقضينا  
معاً ساعات طويلة في حديث لذيذ في السياسة والفنون الجميلة والصحافة  
والادب والتاريخ وتارة كان يريني تحفاً وطرائف من صنع المتفنين  
والخرى يسمعي نبذاً من كتبه او ينشد لي شعراً من ديوانه .

رجل اقوي جميل ذو هنية ووقار وهياة حسنة له شعر منسدل في  
مؤخر الرأس ولحية مستديرة فكان وجهه محاطا بالشعر الذي يكسب  
الرجل منظره الطبيعي ويبعث في قلب من ينظر اليه بالاحترام .  
كان طويلًا بين الرجال عريض الكتفين كأنه من بقايا ابطال  
الرومان . او من هراقلة اليونان . ولا عجب فهو ابن عروس البلاد  
واعجوبة المدائن .

كان مع ذلك العظم في الخلق والجلال في الهياة كالطفل الصغير  
دعة ولطفاً خلوا الحديث ابن العريكة بطي الغضب واسع الصدر  
وهذه صفات الرجل العظيم .

كان يحدتي هذا الصديق الكريم عن أيام فتوته اذ كان  
يطلب العلم في مدينته ويقص علي حوادث حياة الطلاب في المدينة  
انطالدة ويصف لي حياة المتفنين من مصورين ونحاتين وموسيقيين

وممثلين ممن عرفهم في صباه ويقص علي وقائمه الغريبه في احياء  
باريس القصية في ليالي الشتاء . ثم ينتقل الى رجوليته وحياته السياسية  
وتحمسه الشديد للحزب الجمهوري الديموقراطي ويسمعي نبذاً من  
خطبه التي القاها امام الجماهير الملتجة في القرى القريبة من بلده وفي  
ساحاتها العامة . ثم يصف لي كيف عرف رئيس حزب الاشتراكيين  
وكيف وكل اليه هذا رئاسة تحرير جريدته .

كان يعمل في اليوم ثماني عشرة ساعة بين تحرير وتصوير رسوم  
سياسية ونظم قصائد للمجلات الادبية .

ثم انتهت تلك الحياة المملوءة بالحركة الدائمة وانقطع دي نافا  
لنظم والتأليف تارة في وطنه وأخرى في سويسرا . واذا تكلم عن  
وطنه كنت أرى في عينيه بريقاً غريباً وفي جبينه نوراً جديداً . ثم  
يأخذ يقول عن مدينته وما والاها اكثر مما يقول العربي عن الجياد  
وانخيام بسقط اللوا وحومل .

كان يرسم لي بالفاظه وعينيه وايماء يديه مدناً وقرى  
مملوءة بالناس وارضاً خضراء ذات خصب وزرع كريم وسما صافية  
لا تعكر تفاوتها الغيوم وبحراً زبرجدياً كأنه لسكونه وهدووه نيلا  
يحمل تابوت موسى الكليم وجبالا شامخات تلمس بقممها الكواكب



وتناجي سكان الارض من رؤوسها سكان النجوم .

تلك بقعة من بقع أوروبا يصفها ابنها الشاعر الذي لم يعرف  
المدح ولا الهجاء ولم ينزل بملكة النظم من العلى الذي خلقت لاجله  
بل وقفها على ترديد صوت عواطفه ووصف جمال وطنه .

ولكن . . . استدرأ ابدى هو محور الدائرة . لماذا كانت جدران  
المنزل مزدانة بصور الموت ؟ لماذا كنت اذا دخلت غرفة الجلوس  
رأيت في صدرها لوحاً نقشت عليه صورة تمثل هيكل انسانياً مجسماً  
وفي يده محصدة بحصد بها النفوس وتحت اقدامه جماجم وعظام لا  
تحصى ولا تعد ؟

لماذا كنت اذا دخلت غرفة الطعام رأيت بدلا من صور الفواكه  
والاسماك وقناني النبيذ التي تزدان بها غرف الموائد صوراً تمثل  
الفناء نازلا على أهل مدينة ومرفقاً عليهم بجناحيه المشوه ومتين ؟ وفي  
احدى النواحي غرابان سحمت تنفق ويوم رابض لا يرى منه الا عيناه  
الفضيعتان اللتان تملآن قلب الناظر اليها هلعاً .

لماذا كانت غرفة نومه مزدانة بصورة اوفليا وهي جثة خامدة  
طافية على وجه الماء في نهر بديع على ضفتيه اشجار الصفصاف الخالدة  
وعلى رأسها اكليل من الازهار وضعت يدها ليكون حليتها الاخيرة

وكانه رثاء الطبيعة لها :

لماذا كانت حوائط السلم مملوءة بصور بركان فيزوف اثنا،  
هياجه الاخير .

كذلك كان ما رأيته من مؤلفات صاحبي نظماً ونثراً . قلبت  
صفحات كتابه « انحرافات الانسانية » فاذا هو قصص ليس فيها  
الا احاديث الموت والفناء وتصاويره ذاتها مرعبة مزعجة . انه  
يضرب لنا الامثال على لسان الانسان كما ضربها ايثوب ولا فوتين  
وعثمان جلال و ابراهيم العرب على لسان الحيوان . ولكن في كل قصة من  
تلك نرى أثر الدماء المسفوكة والاشلاء المبددة والاجسام المشوهة . الموت  
يرفرف على صفحات الكتاب من اوله الى آخره ، حتى قصصه التي  
تبتدي . بالعشق والجمال والسعادة تنتهي بالخراب والموت والفناء .  
كأنك يا دي ناقا جمعت آلام البشر وحشرت فظائع الحياة الانسانية  
في كتاب تناولت شعره فلم تكن دهشتي منه اقل من دهشتي لنثره  
« رثاء سفينة لم ينج منها احد » . « صوت الموت » « اسرار قصر  
شيلون » « جحيم دانتي » .

فلما رأيت هذا وذاك قلت : « ان صاحبي مفكر حزين وقد  
يكون في المستقبل من واضعي الروايات الفاجعة . ولم يدر بخالدي

ن منزل الرجل وكتبه وشعره كانت كلها حلقة تربط الحال بالاستقبال .  
 لم يجعل بخاطري ان حالة صاحبي النفسية وظواهره المادية  
 والمعنوية لم تكن إلا علاقة العقل البشري بحوادث القضاء .  
 لم تحدثني نفسي ان ما رأيته في يد صاحبي وما قرأته في مؤلفاته  
 كان أكبر دليل على ان الانسان ليس الآلة عمياء في يد القضاء  
وانه مجذوب مدفوع الى نهايته بكل قواه وبكل ما يحيط به .

°°

في شهر يناير ارسلت الى صديقي دي نافا تذكرة اهنته  
 فيها بحلول العام الجديد فلم يصاني منه رد . فكتبت بعد حين الى  
 صديقة لنا وسألتها عن صديقها وصديقي فاجابتنى هكذا :  
 « ان دي نافا سافر من لوزان هو واسرته الى مارتينيك . وكان هناك  
 يوم نزلت الكارثة باهل الجزيرة وهلك واهله مع الهالكين »

اللله لا ربه  
 ان لوزان ليس الا آلة  
 عمياء في يد القضاء  
 في ذل سنة ١٩١٤  
 ليل نوافه  
 ١٧

## الليلة الحادية عشر

### الافواه الثلات

زارني الروح الحائر وانا اقرأ ديوان شعر قال اتقرأ الشعر انك  
اذن لا تزال متعلقاً بالخيال قلت : كيف ذلك ؟ قال ان الشعر صنع  
الغاوين وقتنة ار باب النفوس الخفية لانه لا يكون خالياً من ذكر  
الحب والحب حلم فارغ مزعج قلت : كيف تقول هذا وانت في عالم  
الارواح عالم الحب والهناء الابدي . قال بل كيف تقول اني في  
عالم الحب والصفاء الابدي وانت تعلم اني روح حائر انشد الحقيقة  
بعد الموت كما كنت انشدها قبله . قلت وهلا تلمس الحب ايضا قال  
كلا : اني عرفت ثلاث اخوات فلما رأيت طبائهن وبانت لي  
حقيقة المرأة عرضت عن الخيال وهمت بالحقيقة قلت حدثني حديث  
الاخوات الثلاث قال :

الاخت الكبرى امرأة متزوجة وليس للحسن في خلقها حسنة الا ان  
مجموعها لا ينفر النظر وتقاطع وجهها اذا اخذت جملة قد تخدع المشاهد عند  
الوهلة الاولى . ولها من حين الى حين نظرة حسنة يسميها العرب نظرة غنج  
ويصفها الافرنج باللين . فيقولون انها ذات نظرة « لينة » لانهم يرون  
انكسار العين فيفهمونه ولكنهم لا يتصيبون فيه اني لم ارها بكراً ولكنني

اظن الزواج قد خلع عليها حلة لا يمنحها الا من يدخان فناءه .

ابو الثلاث ايطالي المولد وامه فرنسوية من صميم فرنسا . فاخذتها  
جدتها الى ايطاليا في صباها وحببت اليها السياحة فانتهت في نفس  
البت عواطف كانت خامدة وتحرك فيها العرق الدساس ففطنت  
الى ما حو لها من جمال الطبيعة وقضت اياماً طوالاً في كنائس بدوا  
وفلورنسا ومعابد جنوة ومقابرها . كانت خجولا فتعلمت الاقدام  
ومحبة لبيت امها فمالت الى الاسفار . وهي لها ان تسافر الى بلاد  
الانكليز فلم تتردد واخرقت بحر المائش وقضت بينهم ثلاث سنين  
تعلمت خلالها لغتهم وخالطت رجالهم ونساءهم واطلعت على كثير من  
دخائلهم واستفادت من عشرتهم . ثم عادت الى فرنسا فتزوجت  
من طالب لم ينته بعد من دراسته . اكتسب حديثها طلاوة المنطق فهي  
ليست كغيرها من الفرنسيات . لا تأخذ القول على علاته انما تحص  
الآراء ولا تكثر من الحديث وهذه من نعم الانكليز عليها . تعلمت  
الرزانة في الاخلاق ونسيت الطيش والحدة . لا اظنها كانت طائشة  
في صباها ولكن لم تكن لتصل الى الاناة والتؤدة التي بلغت في العشرين  
الانحو الاربعين

تعلمت ان الانكليز يعملون ولا يقولون وان بعض الناس يستبيحون

الخبث للتستر وان ما يتصرفونه في الخفاء تقشع الابدان من ذكره في العلانية  
فرات ان هذه وسيلة لا بأس بها وانها تبيل الغرض وتحمي من الملام.  
عرفت ذلك من حديثها ولسكنني لم اعلم الى اي مقدار بلغ تطبيق  
العلم على العمل في شؤونها . انما اعلم انها قادرة على اللعب بزوجها  
كما يلعب الانكليز بكرة القدم . وهي تعامله كالطفل وقد تجده ايسر  
من اطفال الانكليز الذين كانت تتعهدهم . لانها كانت مربية رأيت من  
حديثها انهما تعتبر ذاتها زوجة انكليزية لزوج فرنسوي . هي العقل  
المدير وهو اليد العاملة.

قرأت معظم مؤلفات اميل زولا وهي تلخصها كتاباً كتاباً امام  
اختيها الصغرى بين لاهيا ولا تخفى استحسانها لاشع ما كتب الاستاذ  
الجليل فيخيل لمحدثها انها رجل لا امرأة وقد يكون زوجها جالساً فلا  
يفهم اكثر مما تقول واذا تكلم المسكين اشفع كل جملة من حديثه  
بنظرة اليها ويقول له اليس كذلك يا زوجتي فتجيبه بلى يا زوجي الصغير  
انها تتكلم الانكليزية بتردد كما يسير الطفل في شهوره الاولى ولكنها  
تعتبر تلك اللغة الصلبة مروية لسانها الجميل انها لم تقرأ كثيراً من  
الكتب ولكنها قرأت كثيرين من الانكليز رأيتها يوماً وحيدة ولم  
يكن معها زوجها فلم تترك لحظة تمر بدون ذكر كلمة تخرج عن سياج الاداب

من اللغة المحلية بين الطبقات الدنيا « اسمع » فاذا سألها معنى ما تقول اظنبت  
في التفسير ولم تترك مجالاً لقائل . فكنت اشعر بانها من النوع الذي  
يمرح في الاقدار ويستبيح ما لا يستباح باسم الحرية . لقد اتقدها الله  
بالزواج الذي منحها الصون المصطنع والعفة المفتعلة ولست ادري  
ماذا كان تكون حالها لو بقيت بدونه وقد جمعت في طبيعتها ميول  
الفرنسويات وخبث جيرانهم .

اظنها تعيش سعيدة وتسعد زوجها اذا لم يمت قبل الاوان واذا  
لم تلق في طريق الحياة من هو اجمع للصفات التي تستهويها . ان زوجها  
يعيش معها على سفح بركان ولكن كثيراً ما تنمو على تلك السفوح  
جنات خضر وحدائق .

الاخت الثانية لا تزال في عرف الناس عذراء . وعرف الناس  
امر لا يعول عليه كثيراً . ولولا ذلك ما كتب مارسيل بريفو كتاب  
« انصاف البكارى » . انها لاشك فتاة جميلة ناضجة ذات شعر  
اسود وعينين دعجاوين ووجه مقسم وصوت رخيم وقوام جميل .  
هي سمراء كأنها من اهل صقلية وفتاة كأنها من سكان نابولي الجميلة  
ولها نظرة ساحرة كأنها من بنات البندقية . وقد دلتني حديث أمها  
ان اباه ايطالي المولد فلا غرابة اذا جمعت تلك الصفات .

ان تلك البنية بقيت في نظري لغزاً لا يحل ومعجزة لا يعرف  
كنها الى حين ثم رفعت العشرة الطويلة لي الستار عن حقيقة  
خلقها رويداً رويداً . في بداية الامر لم يمكني الحكم عليها لان  
نظرة واحدة مني الى رأسها وصدرها كانت تحدث في نفسي اضطراباً  
لاني لم اكن ارى بشراً انما ارى تمثالا من التماثيل البديعة الصنع التي  
أودع اساتذة النحت فيها نفوسهم وعقولهم وملاؤها بأسمى المعاني  
التي تجول في صدورهم وزينوها باجمل ما استطاع التزيين به غير ان  
هذا التمثال يتكلم ويروح ويفقد وله صوت ذو انغام موزونة  
تطرب الاذن والنفس . انك يا فالتين آية العاشقين !

ولكن النفس او الروح او العقل او الفؤاد او القلب او بعبارة

أخرى الموجود المعنوي الذي يستره ذلك الرداء المادي ماهو؟ الونه؟  
ماصفاته؟ هنا معجزة المعجزات وعقدة العقدة . انني لم اخل بالفتاة

الا دقائق معدودة فلم اتمكن من النظر في البئر العميقة المخفية وراء

عينيك العينين السوداوين . ولكنها لحسن الحظ كثيرة الكلام

على المائدة . لا تمضي لحظة الا وتبدي ملحوظة ولا يرد ذكر أمر ما

الا ولها فيه رأي حتى اذا كانت في غرفة مجاورة وسمعت حديثنا

عادت الينا وقالت كلمتها . انها حادة الشعور جداً ولكنها كثيرة



الكتمان . انها لتجلس لحظة فتلعب بعقد الزبرجد الذي يحيط  
بنحرها الجميل وتضع قطعة من الياقوت معلقة في طرفه الى ثغرها  
كأنها طفلة تلهو فافطن لساعتي الى الفرق الشديد بين لؤلؤ ثايباها  
وياقوت عقدها ثم اذا هي تمن النظر في الاشياء بدقة كأنها تدبر  
مكيدة أو تستخرج سرا . ليس أعظم من الفرق بين الطفلة اللاعبة  
والمرأة المفكرة الا اجتماعهما في شخص واحد .

انها تحب نفسها كثيراً واذا أبغضت حقدت واذا حقدت  
انتعمت وانها لتودي بمن تنتقم منه . لو كانت ملكة لكانت اليزابيت  
كلا ! انها اقرب الى كارين دي مديتشي ولو كانت رجلاً لكانت  
ما كيا فيلي ولو كانت حيواناً لكانت فهداً اسود . ولكن أليست  
ايطالية ؟ قد تكون في دماها قطرة من دم بورجيا وأخرى من دم  
مديتشي . انها لم تخلق لتعيش عيشة هادئة في بيت صغير في شارع  
سولي بمدينة ل . . . انما خلقت لتشرق شمسها في بلاط مملكة من  
ممالك ايطاليا في القرن الخامس عشر حيث يجد روحها الشرير مجالا  
للدسائس وميداناً للايقاع بأعدائها . ان كلمة « فنديتا » مكتوبة على  
جبينها . ولو عادت الى سهول كورسيكا او وديان صقلية حيث كان  
يمرح جدها في الناس قتلا وسلباً لرات نفسها حيث تطمئن لانها

لا ينقص جمالها الفتان وعضلها المقتول وذكاءها الخارق واراقتها  
القوية لتكون رئيسة عصابة الاثاب الجبل وسلاحه .

ليس في اللغة الفرنسية كتاب تجهله العذارى الا قرأته .  
أطلقت لها أمها العنان فخرجت هنيئاً مريئاً من عين زولا الصافية  
ثم أشبعت نفسها من مؤلفات بريشو وغذت ذهنها بأغاني مونمارتر  
وشاهدت رواية سالوميه ولم يفتنها سواها . خلقتها في هذا الجبل فلة  
من فلتات الطبيعة انها خلقت لتلبس تاجاً وتخرج من كيسها حقاً  
صغيراً فيه سم زعاف تقتل به عدوها أو تشربه هي اذا وقعت في  
يده وضاعت بها الخيل .

مستقبل الفتاة يصعب علي الحكم عليه ولكنني أكاد أراها  
تمثل في دائرتها الحظيرة أدواراً تلائمها وتتحسر على انها لا تستطيع  
اقتراف الجرائم وتشرب الدم وتصلب الاعداء .

اما الاخوت الثلاثة . فمخلوق لا معنى لوجوده . لا ينفع ولا يضر  
لا يحيي ولا يميت قيمته في الحياة كقيمة الصفر على بسار الارقام  
المعدودة . مسكينة هي حتى اسمها نسيتها . لا ! هو جوليت .  
ماغرب هذا الاسم على هذا المسمى !

جوليت بنية في العشرين من عمرها ولكن الناظر اليها يحكم

عليها بأنها من بنات الثلاثين. وجهها لا وصف له. ليس جميلاً وليس  
قبيحاً ولكنه وجه مبتذل ذني، تقاطيعه جافية كأنها مصنوعة من خشب  
لا من لحم ودم كأنها صنعة النجار كذلك جسمها قطعة واحدة لا تقسم  
فيه إذا سارت سارت كلها وإذا جلست جلست كلها وإذا وقفت  
وقفت كلها. إن أعضاء بدنها نموذج في التضامن والتضامن صفة  
محبوبة في أعمال الرجال ولكنه مبغوض جداً في أجسام النساء.

قيل لي أنها تعيش في بيت غير بيت أمها وأست ادري ماذا  
تصنع وأظنها شبه خادمة أو نصف مربية. عيشتها بين الأجنب  
واعتادها منذ فتوتها على عرق جينها وتعويلها على تعبها علمتها أمها المنزل  
والاستكانة. فهي المسكينة تجرد نفسها غريبة في بيت مخدوميها  
وغريبة بين أمها وأختيها لأنها تشعر بأن أمها لا تحبها ولو أحبها لا بقت  
عليها كذلك تشعر بقبحها وجهها بالنسبة لاختيها فلا تقرب من  
أحداهما وإذا تكلمت همست كأنها طفل يتيم وإذا جلست على  
مقعد يبدو عليها من المسكينة كالعبد بين أيدي سياده لا يكاد  
جسمه يلمس طرف المقعد ويده مضطربتان في حجره ورأسه  
مطرق وعيناه مغضيتان كذلك إذا تحدثت قالت قليلاً مبهماً  
وسكنت بخوف ووجل كأنها تلميذ يخشى عقاب الأستاذ إذا رآه

يتكلم في المكتب أو مجرم شاعر بذنبه ويحاول عبثاً الدفاع عن  
نفسه والتبرأ من جنايته .

أما لا تعبرها التفاتاً ونادراً ما تدعوها إلى الغذاء واختها الكبرى  
إذا رأتها تشفق عليها وتدعوها إلى بيتها بعد مشاجرة عنيفة بينها وبين  
زوجها . أما الأخت الصغرى فالتين فتهزأ بجوليت المسكينة  
وتصرعها بنظراتها كما يصرع الأخ القوي أخوته الضعاف بذراعيه .  
وتتبه عليها بجهالها وتعاكسها بعنف كما يعاكس الأطفال بعض الوحوش  
المسجونة في حديقة الحيوانات أن تلك الوحوش وراء قضبان من  
الحديد يمكن كسرها ولكن جوليت في سجن أضيق وأشد ولا يمكن  
كسره هو سجن الفقر والتبجح والنذل !

رأيت هذه المسكينة ثلاث مرات فكنت اتقرب إليها تعزية لها  
وسلوى وكنت أرى في عينيها عرفان الجميل يكاد يسيل دموعاً . قد  
يكون قبح الوجه من دواعي حسن الطباع والأخلاق . أن نفسي  
تحدثني بأن جوليت كريمة النفس طيبة القلب لقلّة ذكائها وجمالها .  
أن تلك المسكينة عاجزة عن إتيان الشر وتلك الخشونة الظاهرة دليل  
على الرقة الباطنة . لا بد أن تكون جوليت قبيحة الوجه جميلة النفس  
عكس اختها الصغرى

اما عن مستقبلها فهو واضح جلي انها ستبقى من راهبات  
القديسة كاترين الى ان تلقى شريراً ذكياً .

هذه تصاوير الاخوات الثلاث رسمتها بما في وسعي من الاتقان  
وقد قالت لي امهن انهن شقيقات وانها لم تتزوج الامن رجل واحد .  
ولكن ابنتها الكبرى نظرت اليها نظرة وددت ان تقول بها اني يا امه  
استبعد تلك النظرية ولو قبلتها فليس ضرورياً جداً ان نكون  
نحن الثلاث ثمرات هذا الزواج .

قال الروح الحائر : هذه ثلاث نموذجات للمرأة لا تخرج انثى عن  
احدها فاما كالأخت الكبرى امرأة لا تمتاز بحسنها ولكنها ترضي  
زوجها فتكون عفتها عفة ضرورة وهي بوءة فساد كامن دعت الى  
كتمانها الاكاذيب والنظامات المتفق عليها واما جميلة شريرة قال  
بازاها القريب منها والبعيد عنها كالأخت الصغرى وهي نذير خراب  
البيوت تحفر طول حياتها قبوراً للرجال ومن لاتواريه التراب  
أوقعت به في حباله والثالثة كائن لامعنى له لا يضر ولا ينفع جعلته  
الطبيعة صدقة على من لم يقع فريسة احدى المرأتين .

المرأة اللبنة الحامضة  
المرأة اللبنة الحامضة  
المرأة اللبنة الحامضة  
المرأة اللبنة الحامضة  
المرأة اللبنة الحامضة  
المرأة اللبنة الحامضة  
المرأة اللبنة الحامضة  
المرأة اللبنة الحامضة  
المرأة اللبنة الحامضة  
المرأة اللبنة الحامضة

## الليلة الثانية عشر

### الفاكرة المحرمة

زارني الروح الحائر فقلت له اني لا ازال اذكر حديث الاخوات  
الثلاث ولكني لا اجد للحب اثرًا في هذا الحديث . قال نعم اني  
ذكرت لك طباع المرأة قلت ولكني لم اتطلب قولاً في طباع النساء  
انما تطلبت منك حديثاً في الحب . قال : كيف الوصول الى ذلك  
دون الوقوف على طبيعة المرأة إن الحب الا عنصر من العناصر  
المكونة لخلقها فمن وقف على الخلق كله وقف على عناصره . قلت  
أتيت لي في الليلة الماضية على حديث نساء تغلب الشر على الخير في  
طباعهن فهل هذا كل ما علمت عن المرأة قال كلا ان لدي أحاديث  
شئى عن حياتي الارضية قلت هات ما عندك لعلي أجد الحقيقة  
التي انشدها .

قال : كنت أسبح في بعض بلاد الغرب فعرفت ربيته  
اذ كنت باحدى قرى الالب . وهي عذراء في الثامنة  
عشر من عمرها تكاد تكون لسواد شعرها ودعج عينيها  
وعمقها شرقية لاغربية وكان لهذا الجمال الاجنبي معنى خاص به

ويظهر ان اهلها أنشأوها على الترية والعادات السكسونية قوة في  
الساعد وحرية في الفكر والقول . كنت أظن هذا الفندق الذي  
نزلت به خلواً من الاضياف وانني سأذوق لذة العزلة في رأس الجبل  
خمس عشرة يوماً ولكن هذه الفتاة افسدت ظني وعكست أملي  
وجعلتني منذ تحادثنا اكثر شغلا مني في ا كبر العواصم واكثرها اضطرابا .  
التقيت في غرفة الجلوس الصغيرة الخميرة في يدي « افكار بسكال »  
وفي يدها « مكاتيب فرانسواز » وضع مارسيل بريشو . بدأت  
تحادثني فذعرت لانني لم اعتد ذلك . قالت لي في آخر المجلس « انني  
سعيدة اذا كان في قربي منك ما يخفف آلامك » غير ان خبرتي  
باخلاق البشر وقتني شر الانخداع ولو كنت سمعت هذه الكلمة  
وانا في السابعة عشر من عمري خرت امام قائلتها ساجداً . لكن  
السنين القليلة التي « عشتها » جعلتني اذا سمعت اضعاف هذه  
الكلمات الحلوة ابتسم بسمه ابتساماً غير المكثرت .

° °

في الجلسة الثانية تكلمنا في الفنون الجميلة وتبادلنا الخواطر عن  
متاحف باريس ووورد عرضاً ذكر صورة جوكوندا التي تزدان بها جدران  
اللوفر فقالت رينيه انها لما رأتها لأول مرة منذ عام واحد بكت  
فسألتها بدهشة عما دعا الى ذلك البكاء . قالت انها لما رأت نفسها

أمام تلك المخلوقة الكبرى هاجت عواطفها فاسدلت الدموع .  
قلت لها ان دقة الاحساس الى هذه الدرجة تنقص حياة صاحبها  
فضحكت الفتاة وقالت ولكن هذه الدقة ذهبت بذهاب العام  
الغابر . قلت كيف ؟ اذا رأيت الآن أمامك منظرًا مؤثرًا  
يكون بالنسبة لك في هذا العام كمنظر جوكوندا في العام الغابر  
أفلا تبكين ؟ قالت : لو دعاني الآلهة الى مائدتهم وسقوني  
بأيديهم المقدسة كووس الرحيق او خلقوا أمامي العالم بأسره  
من جديد وعذبوا نصف أم الارض ما نزلت من عيني دمعة  
واحدة . فأدهشني ذلك الكلام وقلت ان أشد الرجال بأسًا  
وأقسام قلبًا لا يقول مثل هذا القول وان قاله فهو مازح  
قلت لي قل ان أقطع الوحوش الكاسرة لا يمكن ان يتصف  
بتلك الغلظة . قلت كلا اتني لا أقول ذلك ولكن هل لهذا  
الاتقلاب من سبب قالت نعم . اتني أحبيت رجلاً كان  
يجبني . ثم علمت ان حبه كان كاذباً قلت لها او حادثة  
واحدة كافية لان تقلب في نظرك نظام الكون ؟ قالت انك  
رجل ولا يمكنك ان تفهم نفس المرأة انكم ايها الرجال لا تشعرون .  
قلت عفواً ياسيدي . قالت ان حادثة واحدة تشمل حياتي



بأسرها • تصور الاحلام والاماني التي تخيلتها تصور قصور الريح  
التي شدتها • تصور الساعات السعيدة التي قضيتها بجانب الرجل  
الذي احبته • تصور اتني لحبي له غيرت عقيدتي وودنت بدينه •  
تصور اتني منذ عرفته نظرت الى الحياة بعين جديدة ورأيت  
المخلوقات والموجودات بشكل جديد • ثم تصور انقلاب ذلك كله  
في لحظة واحدة الا يحدث هذا الانقلاب ثورة مروعة؟ فلم اجب •  
دخلت علينا سيدة منقدمة في السن فغيرنا الحديث بأسرع ما يمكن  
وتكلمنا عن الطقس وجمال الشمس وعلو جبل زرمات •



الجلسة الثالثة في الغابة على شاطي، بحيرة صغيرة ماؤها آسن  
كنت على مقعد خشبي صغير ادون بعض المذكرات واتممع  
بجمال الطبيعة ولذة الحياة واسمع تغريد طيور الضحى على  
الاغصان الخفية واستنشق ملء صدري هواءً طاهراً نقياً • رأيت  
عن بعد رينيه مقبلة وهي في ثوب ابيض وقبعة خضراء وعلى  
رأسها قناع من القز لونه كلون البنفسج • وفي يدها باقة من  
ورد الالب • فلما ان دنت مني اغلقت كتابي لاقراً كتاباً  
ابلع وابدع صفحاته عواطفها وسطوره كلماتها • قالت لي لساعتها  
أتبني قصوراً فوق سطح الماء • قلت لها قد يكون ذلك ولكن

هيات ان تبقى اكثر من قصور الرياح . قالت ان اساطيرنا  
تروي لنا قصة ارم ذات العماد . وكنت في طفولتي احلم أتي  
دخلتها وملأت اكامي من كنوزها . ولم اكن اعرف حينذاك  
انها من قصور الرياح .

قلت لها ولكن هلا غيرت رأيك في العالم والانسانية  
منذ اول امس ؟ قالت كنت امس في الكنيسة اسمع خطبة  
القسيس . فلما ان بدأ جملته اللاتينية وقال اخواني الاعزة تلجلج  
واعترته فهاهنا ثم ارتج عليه . قلت لها ولماذا ؟ قالت لاننا تبادلنا  
النظرات . قلت وهل يدعو ذلك الى تلجلج القسيس الخطيب ؟  
قالت نعم لانه امس وجدني في الغابة نحو الغروب فدنا مني وحياني  
فحيته وتحدثنا ملياً على غير العادة ولم يمض على حديثنا ربع ساعة  
حتى فأنحني في غرامه . قلت لها أيتها الانسة انك تدهشينني .  
قالت يجوز لانك لا تزال صبياً لا تعرف الحياة . قلت لها عفواً  
ياسيدي . قالت : عفواً ياسيدي .

قلت لها إلا تفضلين ان نسير قليلا في ظل الاشجار قالت حباً  
وكرامة . فسرنا واستسما لنا للطريق فبلغنا مكاناً مشرفاً على السهل  
والجبل فيه الشمس المشرقة والخضرة الخضرة والمياه المنحدرة

الزاد البري  
على كل  
الاسر

وتحادثنا طويلاً في امور شتى . وانا لكذلك واذا السماء قد  
اكفهرت والغيوم ترا كمت فاسود الجو واخذ الرعد يقصف والبرق  
يخطف وانهمر المطر كاندفاع الغدران والانهار .

كنا بعيدين عن الناس مسير ساعتين على الاقل في حوض  
الطبيعة امنا اخنونا وبين ايدي عناصرها القوية . فنظرت الى  
المرأة التي بجانبني والتي قالت ان الارض اذا انشقت والسماء اذا  
انطبقت لا يعترها اهتزاز فرأيت في عينيها اثر الرعب الشديد ثم  
ما لبثت ان اضافت الى مطر السماء مطر عينيها فقلت لها بصوت عال  
حاولت ان اتغلب به على صوت الرعد اي الاثنين تخشين ايها  
السيدة الطبيعة ام انا ؟ قالت كلا لا هي ولا انت ولكنني اشعر  
بخشوع امام ما ارى واسمع . قلت لها اذن ضعي يدك في يدي  
وهيا بنا نقصد ذلك الكوخ القريب . قالت اتني لا استطيع ان  
اسير في هذا المطر ان البرد شديد يا اخي . فخلعت لساعتي ردائي  
وتوسلت اليها ان تتلفع به ففعلت ثم ركعت وطلبت اليها ان احملها  
فامتنت ثم رضيت وسرت بها استند الى عكاز صغير فنزل قدمي  
تارة ونهتدي اخرى الى ان بلغنا الكوخ الذي رأيناه في اقصى  
الغابة فلجانا اليه الى ان يهدأ روع الطبيعة الغضوب . وكان  
الكوخ خالياً .

كانت رينيه مغمضة عينيها طول الطريق فلما ان وصلنا الكوخ  
نظرت حولها ونظرت اليّ وزال رعبها وما زلنا صامتين الى ان اتفق  
الهة الجوّ فيما بينهم على ان يطلقوا الشمس من سجنها وان يقيدوا  
البرق والرعد والمطر الى حين فخرجنا وسرنا بسكون نحو الفندق .

الاصحاح

° °

الجلسة الخامسة في غرفة الجلوس ذاتها قبيل نصف الليل كنت  
أقرأ كعادتي وأستعين على خمود الذهن ووهن القريحة بقهوة البن  
فدخلت عليّ رينيه مشرقة الوجه وقالت طاب ليلك يا صاحبي قلت  
اهلاً بك وسهلاً آيتها السيدة . كيف انت قالت اتني انكر نفسي  
قلت وكيف قالت ان قلبي بدأ يشعر بالصبي وعاود نفسي ظمأ  
الغرام . قلت لها وهل عفوت عن الكون والمخلوقات ؟ قالت عفواً  
شاملاً . قلت وكيف تمّ ذلك قالت غسلت دموع امس كل  
الحزازات الماضية . وقلبت الرياح صحيفة جديدة من حياتي . قلت  
لا حقد على الرجل منذ اليوم ؟ قالت كلا . لماذا أحقد عليه ؟  
ان اني آدم لم يحقد على امي حواء ورضي بها بديلاً من الجنة على  
انها هي التي دنسته واطعمته الفاكهة المحرمة .

الاصحاح  
الاصحاح  
الاصحاح

قلت للروح الخائر وهل احببت هذه ؟

فلم يجب . وتواري .

صال الدير  
صاعقون



وف في السماء كعادتي فاذا بي اسمع انعاماً شتى خارجة من ممكن  
خلف غيوم كثيفة تخللتها الوان قوس قزح . فدنوت واستمعتها فاذا  
هي أناشيد تتغنى بها بعض الارواح فاستبنتها فاذا انا ارى اربعة  
ارواح شاعرة . وفي يد كل منها قيثارة يوقع عليها ويتغنى فلما  
قربت سكنت الاصوات واسترقت الارواح نظرات خفية فيما  
بينها واوشكت ان تنصرف . فقلت لها بحق الوحدة التي انا  
فيها. والود الذي جمعكم ووفق بينكم هلاً انشدتموني شيئاً من  
شعركم . فابتسمت الارواح واحداً بعد آخر وتقدم احدهم ورفع  
بجناحه الملون ثم امر يده على جيده المكلل بالغار . وقال : أيها  
الروح الحائر انك حديث العهد بأهل السماء وقد سمعت في الارض  
شعراً كثيراً معظمه عقيم لان شعراء الارض لا يزالون لاتصالهم  
بالمادة الدميعة مقيدين بقيود وضعها المحافظون لعجزهم وقد القم  
هذا النوع من القول في شؤون لاتعدد فلو انك سمعت ما نتسلى  
به مما يقوم بنفوسنا دون قيد لم يرقك لحدائثه عهدده ولكنك اذا  
مارسته استوعبته واستعذبتة . وان في أهل الارض بعض المفوقين  
الذين جراًوا فقالوا الشعر كما أوحى اليهم وأعطوا الناس افكار  
الارباب عذارى لم تعبت بها ضرورة الوزن ولا عذر القافية  
والبحر .

١٠٦  
و لوني  
نظراً  
البحر

قلت : اجل اتى اذ كر شعر ثرين ووتمان

قال الروح الشاعر : وكيف وجدته؟

قلت : وجدته عذبا كالشهد وصادقا كالحقيقة .

قال الروح اذن لن تنفر ان اسمعناك شعرنا وها انا ابدأ

بالنشيد وانا اصغر اخوتي واعجزهم .

ثم ابتعد الروح الشاعر الاول وأخذ قيثارة وشرع يتغنى بقول

وعيته بلسان الارواح ونقلته اليك على قدر استطاعتي . قال : —

## بسمت الربيع

١

سمعت في الروض تغريد البلايل .

ورأيت في طريقي زهرة البنفسج بين الاعشاب .

وشعرت بحرارة الشمس القوية .

وخرجت نفسي من مخبأها تستقبل الفصل الجديد .

٢

الكون كله يتأهب للحياة .  
والطبيعة بعثت من مرقدتها الطويل .  
والموجودات كأنها آلات عازفة .  
تشارك في احياء مولد الوجود .

٣

دع الانسان النهم يجمع المال او يشيد .  
ودع دولاً تحيي وأخرى تموت .  
ودع الحكماء يقولون مالا يعلمون .

وهلم بنا الى الاحراش والحقول .  
*Wordsworth*

٤

الايام تجري مسرعة ، بل الزمان يقطعها قبل الاوان .  
ولكن كل مشرق شمس ادنانا من مولد الربيع .  
آذار رسول الجمال والنور .  
آذار ملك على الايام والشهور .

٥



كالوالد الحنون يعد لولده مالا .

كذلك آذار اعد للعالم جنة الربيع .

صبغ افهام الزهور بالالوان الزاهية .

ونقش اكمام الورد في الاوراق الخضراء .

٦

سرت آذار في الكروم والرياح .

ومنحت الزهور والثمار من قوتك ونفحك .

ووهبت الاعناب رحيقا من خمرك .

وطوقت التفاح بنطاق من ذهبك .

٧

آذار انت طيب الطبيعة .

أنهضتها من فراشها بعد طول الرقاد .

وسيرتها في موكب عجيب لفت انظار الآلهة .

كل كائن يعرف على آله مطربة وكل زهرة كأنها علم منشور .

٨

١٠٩

ان الخزامي والرجس والاقحوان والياسمين تتيه بقدها  
ولونها وريحها

والبلبل والقنبرة يتفاخران بحسن الصوت  
والارض فرحة بحياة اطفالها  
والشمس تضحك معجبة وتجود بحرارتها ونورها .

٩

يد الله يا آذار باركت في ايامك . انت نبي بين الاشهر .  
في كل ليلة من لياليك تلد الطبيعة نباتاً جديداً  
وتسمع في الغابات نغمة عذبة .  
كل يوم من ايامك يكمل زينة الارض العروس .

١٠

لما اخترقت اليوم طريق الغابة وسرت على الاوراق المشورة ،  
شممت رائحة الربيع في الاغصان .  
الفصل الذهب تحت اقدامي والفصل الجديد محيط بي .  
افواه النهرات تندفق وكأنني لمحت في الغدير روح الماء .

١١

١١٠

آذار اعددت مجلس الربيع وشفيت الكون من علة الشتاء .  
واحيت النبات والحيوان  
واوقدت في نفسي شعلة الحياة  
وذهبت ولم تر جمال الاشياء !

١٢

تلاك نيسان فورث مجدك .  
كذلك لا يحظى بفوائد الاشياء من بذل نفسه في سبيلها .  
افضل الناس من كان بينهم كآذار بين الشهور  
سعادته في انه اوجد الربيع وقضى قبل ان يذوق الثمر .

\*\*\*

فلما انتهى من انشاده ابتسم بسمة الملائكة وقال: يقول اهل  
الارض اجمل النساء لا تهب اكثر مما لديها ولعلك تجد احسن من  
قولي لدى الروح الثاني

فتقدم الروح الثاني وقد لمحت في جناحه كثرة السواد . فسأت  
الروح الاول في شأنه قال لي هذا الروح الحزين ثم اخذ الروح  
الحزين قيثارة وتغنى :

\*\*\*

١١١

يامعبودتي المحبوبة خذي قيثارك وغني لي اغاني الحرية .  
واشعلي نفسي المعذبة بنارك المقدسة واسكريني بخمرك الابدية  
وخذي حكمتي وتجاربي لئلا يعوقني العقل عن نيل الاماني  
العقل جبان يقيد اللسان ويغمد سيف الفتوة .

\*\*\*

لا يفوز إلا ذوو الاقدام . الارباب تلهمهم شجاة ابطال طرواده  
والجن تنفخ في ارواحهم وتدفع بهم إلى حومة الميدان .  
قلبي لا يسع الا حيباً واحداً هو اشرف محبوب ودو اما يلهج بذكره  
كنت أهاب الموت في سبيل حبه واليوم أود ان افديه بنفسي

\*\*\*

نفسى تطهرت من شدة الآلام . وهمومي جلت صحيفة الجنان  
ايض فؤادي من سواد الليالي وتبدد الظلام عن بصيرتي .  
لكل كلمة اسمعها وقع جديد واكل حركة في السكون معنى يشغلي  
معجزة الحياة والموت اعطتني سرها . والعقل الاول يفيض

علي من نوره الخالد

الطبيعة ان ماتت بعثت والنفس ان شابت شبت  
أيتها النفوس الخالدة ان لم تفتني الى سر الوجود هلكتي  
وان فطنت ازداد تعذيبك ومستك نيران سوف تكون آلامها نعيماً  
لان عذاب النفس العالمة الذم نعيم النفوس الجاهلة

\*\*\*

ليالي العلام ليالي الغرام؟

عني ايتها الافاعي المطيبة واكسري كوؤوس الخمر العسجدية!  
وابعدي عن ملمس كفني جسومك الناعمة واخفني عن عيني  
بحسبك الساحر

وخلي فؤادي خالياً من الخيالات الارضية التي تعمي البصائر.



ذقت مرة رحيق العلام! انه شراب الارباب والمطهرين.  
سكرت فنسيت كل الذنبا فكان الحقيقة اسقتني رضاها!  
لم اود ان افيق لثلا تقطع علي احلامي .

هل يترك الجنة من ذاق لذتها وهل يتعد عن الحقيقة من لمسها!



محبوبي الجميل اسير ومكبل بالقيود ودموعه ملأت نهراً جارياً!  
كلما أرى محبو بأسوا حراً يزداد بغضي للعاذل القادر واريد سحقه  
كيف يسحق عاشق عاجز عدوه القادر؟  
ولكن حب موسى اهلك فرعون العتيد.



يارب مومي وداود !

هيني قوتها جميعاً واجعل قوة العاذل أقل من العدم!  
ويا آيتها الارباب القديمة القاطنة الكهوف والهياكل الخربة  
لماذا تركت زهرتك تذبل وتذوي ؟  
ويا حارس الارض المقدسة الرابض في القفر هل آن تبوح  
بسرك الاعظم ؟



افقر الناس اغناهم . واكثرهم تواضعاً ارفعهم .  
وابعدهم عن المجد اقربهم اليه . واسماهم جبا ادناهم من الآمال  
ليس لي في هذه الارض قيد اصبع ولست املك من مائها قطرة  
فخر غيري في امتلاكك ارض الوطن وفخري في كوني ملك الوطن



تملاً الكل واتحدوا على المحبوب . ولكن هل يعجزون الا انفسهم  
ياطلاب الدنيا الزائلة وياعشاق الذهب الحقيقير !  
ويا منافقون في سبيل اقدر الاشياء ويا مفرطون في اعظم النعم !  
كيف تنامون ونور الحق سيبدد اوهامكم ويهزأ بأمانيتكم  
الفارغة .



في كل عام يفيض النهر فتخرج امواهه الحمراء بين ضفافه الغناء  
حتى اذا اطعم الارض وسقاها اندفع ليزيد ماء البحر  
كأنه نفس تنضم الى نفوس خالدة لتزداد بها سعادتها .  
معجزة النهر ترجع الى طفولة الارض وتكاد تنتهي الارقام  
دون حساب عمره .



ولكن انت ايها الانسان الزائل لا تفيض الا مرة واحدة .  
ثم تفيض حياتك مرة واحدة .  
فهل كنت كالنهر مادام شبابك زاهياً  
هلا وهبت نصيباً من حياتك للارض الطاهرة ؟



كانت الالهة المجد تفتني فاصبحت افتنها لاني زهدت فيها .  
آمالنا تم اذا اقتنعنا وما دامت مطامعنا دام عذابنا  
يطول عمر من يطلب الموت ومن يفرون منه يلحق بهم  
حياتنا لها قيمة في ذاتها فدعني من قصة الجحيم والجنة .



محبو تي المسكينة ترتجف في يدي وتبكي . ماذا بك ايها  
المحجوبة ؟

ان اسمك يذكرني بفتيات المدينة الخالدة .  
وشعرك اسود طويل لا ينقصه الا صفائر اللؤلؤ  
وعيناك اجمل من عيني سافو الشاعرة المجنونة

\*  
\* \*

انفك كأنف كلو بطرة . وثغرك حق مملوء بالجواهر .  
وجسمك كأنه صنع ميلو الذي اودعته الطبيعة قوة الخلق فباراها .  
ولكن قلبك الصغير قطعة تفتأ تخفق بجناحيها .  
هل لديه سر يريد اظهاره ام به شوق للوقوف على لغز الوجود ؟

\*  
\* \*

تبيكين لآلامي ؟ كفكفي انك تزيدنيها بلا علم وابقبها لتذرفيها  
في الايام القادمة .

ان دموعك لؤلؤ فلا تسرفي . واشفتي فان حرارتها تحرق قلبي  
انني اعرف آلامي وهي تعرفني . ولكن انت لاتعرفينها فابتسمي  
قد يبدد الغيوم الكثيفة شعاع دقيق وقد تزيل احزاني  
المتراكمة بسمة من فك

\*  
\* \*



ياربة العلاء تقبلي ما كتبت هدية مني  
صحبتني طول عمري واسهرتني ليالي طوالا .  
بنيت لك في قلبي معبداً سامياً ودونت لك صلاة فتحت فيها  
خزائن نفسي

لا ادعو غيري للدخول في دينك لانك الهة قاسية!

\*  
\* \*

باركيني يا الهة العلاء واغفري ذنبي  
ان نلت رضاك واردت جزائي فخير جزاء ان تركيني وشأني .  
لاتغاري ان بحث لك بسري ان قلبي تشغله محبوبة جديدة  
هي اسمي واجل منك واسمها الحقيقة !

\*  
\* \*

قال الروح الخائر : ثم تقدم الروح الثالث بخفة كأنه يسارع  
الى حرب ونظر الينا نظرة مريعة فقال لي الروح الاول هذا هو  
الروح المعذب وسينشدنا اغنية النار فانشد الروح المعذب : —

### اغنية النار

نأى العهد القديم واحسرتني  
وصرت وحيداً الاقى صروف الزمن  
فيوماً بشرق ويوماً بغرب  
وكلا اليومين طويل بالاحن



فلا الشرق يحلو لي جماله  
ولا الغرب يطيب لي مقامه  
ولا الدهر يحبوني يوماً بلذة  
ولا العيش يصفوني لدى العود الى الوطن



لي نفس تعذبني منذ عرفتها  
هي نفس حائرة لا مستقر لها  
هي طائر غريب حزين سجين  
وسجنه ذلك البدن



لا الومك يا نفسي فانت مثلي فريسة  
وهل يلوم رفيق رفيقه  
اذا تلاقيا في سجن دنيء كأرضنا  
نفس لا يقر لها قرار وجسم نحيل براه الشجن



كلانا يانفس رهين حبسه  
ماجنيت يانفس ذنباً وما جنيت ولكن حكمة في العلا  
أرادت تعذيبنا

فصبراً يانفسي ولا تجزعي . فكل عذاب له مدى .

\*  
\*  
\*

يخزني اننا ان خرجنا من سجننا اقرقنا  
فانت اين تذهين هل لديك عن مصيرك من خبر؟  
اما انا فمصيري مصير سواي من هؤلاء البشر  
تراب ودود ثم هيكل لا يروق النظر

\*  
\*  
\*

ياحبذا لو احرقوا ابداننا ومانوا رفاتنا  
تكون رفاتنا لا بنائنا كبعض العبر  
اما تلك العظام فانها تهان  
وان لم تهن تصير غذاء للشجر

\*  
\*  
\*

يايدي كم من حكمة دونها  
ويا عيني قد رأيتما العجائب  
ويا قلبي كم أمر جليل وحب كريم وحزن عميق في ثناياك دفينه  
ويا قدمي طويتما الارض باسمها وما طواكما يوماً شديد الخطر

\*  
\* \*

كم يد بيضاء ناعمة لمستها !  
وكم وجه نضر جميل رأته !  
وكم صوت عذب استوعبته !  
وكم امل حلو تمنيته !

\*  
\* \*

وكم ذكرى تملأ النفس حسناً ذكرتها !  
وكم ليلة كالدهر طولاً قضيتها !  
وكم من صحف سودتها وبيضتها !  
وكم يانفسي وكم هل عددتها كلها !

\*  
\* \*

في طرفة عين تصير جميعاً حديثاً مضي  
وانا سيرة مختلط بسوءها حسنها  
هذا ولا الاجرام يعقل سيرها  
ولا تقف حركة الارض لحظة، انما يرد الى الارض طينها.

\*  
\* \*

ردوني يا قوم دخاناً يطير الى العلا !

فقد احببتها !

وهي التي اشقتني سنين واسعدتني دقائق

وهي التي حدثتني وحدثتها .



النار عنصر لا يماثله غيره

هي روح دقيق نراه ويغيب عنا فهمه

هي رمز لرب موسى الكليم

قال لي عابد لو فقهت معنى النار عبدتها .



قلت له وماذا يجديك حبها ؟

قال : هي مصدر الحياة لذا اريد تقديسها

هي خلاصة الشمس هي روح الورى

يا حبذا يوم يضمنى لحيها



قلت هلا طلبت النار حيا فذقتها قال : انا نار ونفسي نار!

وقلبي نار وكل ما تراه مني انما هو شعلة!

فقلت وما قولك في جحيم جاءت بذكرها ادياننا؟

قال : اذكاكم اكثركم ذنوبا حبا في نارنا



رايتها يوماً في حجرة فراشها احمر كالنار

وخداها لهما لون كالون الذهب

وعيناها ترميان باسهم من نار

فدنوت منها ولمستها فشعرت في قلبي بالنار



وحادثتها فقالت كلاماً اشعل نفسي كما تشعل الحطب النار

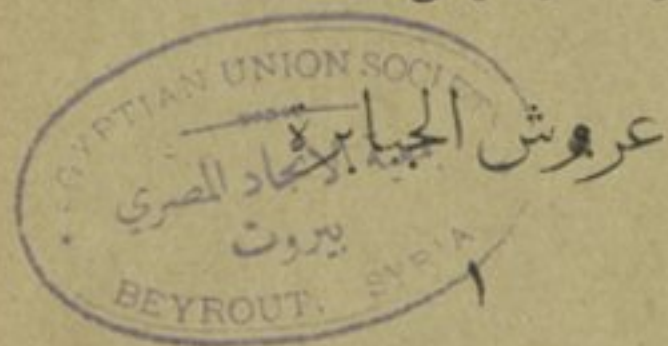
ثم رأيت شققاً في الغرب كنتقطة من نار

فقبلتها فاحرقت قبلتها في فصرخت من شدة الالم

قالت لي انا النار بيدي الايجاد والعدم !



ثم تقدم الروح الرابع وهو شيخ بين الارواح له لحية وشعر  
منسدل وكان شعر لحيته ورأسه لياضه كالجليد ويده قيثارة وعكاز  
على شكل القلم فقال لي الروح الاول هذا هو الروح المؤرخ سينشد  
لنا اغنية يصف فيها صروف الدهر وحوادث الايام . فهمهم الروح  
المؤرخ ثم انطلق بصوت كالرعد يتغنى :



فرّ تبيير اذ هاج سخط الورى  
وولى من رومة هائما مدبرا  
كذا سخط الشعوب مشدت شمل الظالمين  
ومبدل سكنى القصور بادنى القرى

٢

خاف جبار ان يحيق بعزه ما حاق ،  
بعز اسلاف له اذ اقوا رومة علقما .  
فخلى قصورا باذخات وراه  
وعزا مقما وعيشا رخيا ومجدا طائلا .

٣

وخلف عرش أوجست العظيم وهو باك فراقه  
والكايتول والفوروم ونهيراً ساد الابحرا .  
ولكنه فرّ من شعب غضوب وجيش ناغم  
وسخط الشعب كسخط الرب لا يتقى .

٤

الى أين يامن سدت الرومان جميعهم ؟  
وكنت بالامس ملكاً مطاعاً بل الاهاً اكبرا  
ويامن قدت الجيوش وسيرتها  
ويامن فرت لذكرك اسد الشرى

٥

ويامن هلمت قلوب القوم ان تكدر صفوه  
ويامن أجاب نداءه الشرق والغرب معاً  
ويامن ملكت الارض باسرها  
ويامن اذا خطرت ببقعة تنحوا وقالوا : قيصرا!

٦

١٢٤



لى صخرة بالبحر بقيت من قارة الجن اثرا  
جزيرة ذات حسن فاقت به الجزرا  
«كابري» عروس الماء كمنقود الثريا في الدجى  
جزيرة أورثت سبيلها مذ سكتها خطرا

٧

شاد تبييرُ حصوناً في جوانبها  
واودع كل حصن من جنده نفرا  
وقال الويل لكم ان مرت بالحصن سابحة  
ولم تحيطونى بأمرها خبرا .

٨

واعتلى كاهل الصخرة وشاد له قصرا  
آية في الاحكام بناه انسان يحارب القدرا  
صخور عاليات كأنها رماح صوبت نحو النجوم  
ودعائم تكاد علواً تلمس القمر

٩

وقال هيهات ان يدنو من قصري ابن انثى  
انا امبراطور رومة ! انا سيد الارض املاك البحر والبرا  
انا رب الموج والريج والسما  
انا اله الخلق من ارى منهم ومن لا ارى

١٠

حملت خير رومة ياتيبيرو ولم تبق في بستانها ثمرا  
حملت المال . وماقى . المال يقضي به امثالك الوطرا  
وحملت انكاراً وغلماناً لم يعرفوا دنساً وحملتهم ذنوباً  
وصبرت كابري جحيماً اذاغت ناره شرراً

١١

دعوت الجزيرة جنة الفردوس لانها حوت ما اشتبهت  
لقد لوثت الاسم وخذعت نفسك !  
وأمنت إذ جعلت في كل ركن عيناً ترى  
ولكن القضاء ان حل أقعد البصرا

١٢

١٢٦

في كل يوم أحدثت مذبححة .  
وفي كل ليلة قتلت عنفاً وطهرأ  
ولشد ما ابكيت وسالت عيون الحسان دررا  
وهل يرق جامود وهل يحن صخر وهل يابن مخلوق لم يالف  
البشرا ؟ !

١٣

مغاور الجزيرة الزرقا جرت دماء مدنسة  
وارضها صارت لكثرة ما استقبلت حفرا  
والبحر استغاث كلما هوت من صخر ك العالي فريسته  
وجاشت نفس نبتون فأغرى اربابا سواد فاضمرت لك الغدرا .

١٤

اتذكر اذ قدت العذارى وهي عارية  
وأمرتها ان تسبح بماء كأنه فيروز جري  
ومتعت عينا غير قانعة  
ثم اكتفيت فامرت بيطونهن ان تبقرا

١٥

١٢٧

فجرت دماء الغيد كالياقوت حمرا  
فكان لونها القاني ولون مغارة كابري من ابداع ما يرى  
وراقك اللونان ففصدت الحسان مرة بعد أخرى  
وسعدت بابشع الآلام يا أقسى الورى

١٦

اتذكر اذ عبثت بالاطفال اليافعة  
واطالمت عليها الثعبان ينهشها  
فسرت سموه في مجاري الحياة اليانعة  
فاستغاثت منك شياطين سقر

١٧

حصنك العالى ياتبييرُ يقيك كل عدو مداهم  
وصخرك الاشم يحميك اذا حاق الخطر  
وجندك لا تغمض عيونهم  
حظك لذيذ الرقاد وحظ حراسك طويل السهر

١٨

١٢٨

كم عدو القيت من أعلى صخرة  
كما يلقي القتي عن مقلاعه بالحجر  
فهوى الى قاع اليم مهتما  
واغتاله البحر اغتيال الرمل رذاذ المطر .

١٩

كم سر عميق في جوف البحر العميق دفته  
وكم جرم خفي كتمته قبيل السحر  
وكم حسناء أسلت دماها  
اترى رائع الموت في ضوء القمر .

٢٠

امنت الدهر يا تبيير واحتقرت عقابه  
وحسبت كل شيء مسيراً في ركابك حتى القدر  
اذا هاج الشعب قتل شيوخه  
فهابك الصغار والخوف داء الصغر

غضب الاله الحق يا من سلبت نفوذه  
 واراد بك شراً استحقته  
 وارادة الرب ليس منها مفر  
 سوف يروى التاريخ ذكرك قصة وفي كل قصة لنا عبر

أوحى الاله للخلاق ان يغضبوا  
 غضب الشعب وكفى  
 غضب الشعب من غضب الاله  
 غضب الشعب بداية سخطه فانتظر!

انجلو قى صغير السن كبير الامل  
 نفخ الله فيه من روحه  
 كان يصيد الاسماك يعول منها اسرقه  
 وشاءت الاقدار ان يكون مثالا للبشر

رأى أنجلوا قصرًا شامخًا ابصار الورى حوله خاشعة  
 دعائه ناطحت السماء تعاليا  
 ورماح حراسه تذيب الغيوم السابحة  
 وتمثيل تبيير باركانه: رب يُخاف و يُتقى .

رأى أنجلو شعبًا معذبًا  
 يسام الخسف ويستقى الألم  
 ذلّ قوم ليمرح واحد  
 والظلم لا ترضاه أقل الامم

كان أنجلو شجاعا لا يخشى الردى  
 واثقًا بذاته مادام في فعله مخلصا  
 يحب الناس أكثر من نفسه  
 بود لو يشقى ليسعد غيره .

ترك الصياد الشباك وخلي السمك  
 وقام ينلدي « افيقوا من سباتكم »  
 فقالوا جننت يا صبي انك جاهل  
 وهل فاز معاند من اذا قال فعل .

ايقوى الثرى ان يسامي الثريا في السما  
 او يريد اللود ان يطارد الاسد  
 او تريد يا قليل الحول ان تقاوم مالكا  
 تخبر له الافلاك اذا مشى

قال انجلو ان المحال حجة من عجز  
 وليس عرش ظالم بياق حتى الابد  
 اعزموا تنهدم دعائم من ظلم  
 ويهوى علاه كما تهوي أوراق الشجر



عبس الجمع وتولى ساخراً من حقير يسامي الملك  
وقالت امه : انجلو لاتقل ياولدي ماتعتقد  
لثلا تصير طعاماً لاسمك وتتركنا عيلة بلا رجل  
وبكت واستبكته، ولكنه لم يحل

خلا انجلو بذاته . فخار في امره  
وصار يسائل الارض والبحر والسما  
صخور كبري لاتجيب نداءه ولا البحر الصامت الخالد  
ولا كواكب الليل لانها اعين ترى ولا تنطق .

ساد السكون وتجلى جمال باهر  
وجاء الوحي مخترقاً حجاب الدجى  
سمع انجلو في وحدة الليل الرهيب نداءه  
« اصعد الى القصر واهرز عرشه ! »

صاد انجلو سمكا نادراً بهي اللون كأنامل النساء  
 وولى بحمله لرب العرش هدية  
 فلما بلغ سفح الجبل رأى حارسا  
 ولسكن حباه سواد الليل ثوباً قائماً

قضى ليله صاعداً صخرة تعلية واخرى تخفضه  
 في كل خطوة يرنو متلفتاً  
 وصوت السكون نذير الوجمل  
 ولكن في قلبه صوتاً هامساً كأنه صدى صوت الامل

قال والقوم حوله « المحال حجة من عجز »  
 كأن كليته نبراس يضيء سبيله  
 وكان صخور البحر حبت بالثبات فؤاده  
 وتلاطم الامواج أنغام تشجع قلبه

تسلق انجلو جدار القصر قبيل الشروق ببرهة  
 ثم بدت الشمس من خلف الجبال العالية  
 عين الاله اطلت على الورى لتكسو الارض نوراً باهرا  
 فاستوقف ذاك الجمال جنان الفتى

طلعت الشمس كقرص من ذهب  
 واثقت على الماء شبا كها وصبغت عسجداً غصون الشجر  
 الماء عن بعد زبرجد سائل  
 وفيروث يتنفس دخاناً ترحيباً بالضحى

رأى الحراس شخصاً قادمًا فهاهم لانهم لم يظنوه من البشر  
 حصن تبير مقدس لم تطاه بغير علم ربه قدم  
 من ذا الذي لم يرعه الخطار . بهتوا ولم يجسروا ان يدنوا ..  
 ماهذا الحمير؟ اشبح زائل؟ أم رسول من العلى؟ !

قيصر لا يزال في فراشه . ما عرفت عيناه سوى نور الشفق  
 قضى الليل في جحيم مذهب  
 كذا اليوم يقضي في رقاد مزعج  
 ومن يحظ بصغفوا الليل يلق في النهار الكدر

استأذن الخراس على قيصر ودنا رئيسهم على حذر  
 وقال : انسان تسلق صاعداً .  
 قال تبيير : تسلق ماذا ؟ اجب !  
 قال الرئيس : تسلق يا مولاي سياج القصر

قال تبيير : قل رام أسباب السماء بسلم  
 ولا تقل تسلق قصر رب هذا العلا  
 قل شاء انزال كواكب الفلك  
 ولا تقل استهان انسي بعرشنا

تنطق تبيرو وسار الى ساحة القصر مسرعاً  
 مكن يريد خرق الارض أو بلوغ السحب  
 غضوباً حاتقاً ولكن في فواده ديب الذعر  
 فلما دنا رأى قتي صغيراً عالي الجبين بهي النظر

تقهقر الحراس اذ بصروا برب البرج قادما  
 وابيضت وجوههم لما رأوا في عينه نار الغضب  
 وقال الكل اليوم غاية عمرنا اليوم حل بنا قضاء القدر  
 الا القتي الصياد تقدم باسمنا و القتي بأسماءه تحت اقدامه

«هذي يا مولاي أسماك حملتها اليك هدية  
 أحسن ما صدت وصاد آبائي منذ القدم  
 انظر اليها حمراء دقيقة  
 كأنها أنامل حسناء تلمس نحرها وقت السحر»

«أنت من وكيف بلغت رحابنا  
وكيف جزت الصعاب ولم يدركك الخرس  
«أنا قتي حر أريد أن أبدي لامثالي المثل  
فقد نزهوا عرشك عن ان ينال

تسلقت القصر وجزت الصعاب اليك  
ليعلم القوم ان أعلى الحصون تمنعاً قد ناله ادنى البشر  
وان صياداً حقيراً أراد فلم يعجز عما طلب  
وها انا يا ظالم اهز ارفع عرش في الدنيا»

بدا الغيظ الشديد في سحنة الضبع النهم  
ورأى الحراس طيف الفناء حول القتي حائماً  
وحاول عالج بينهم ان يسلم حسامه  
فقال تبيير مكانك هذا فريستي !

ومدّ معصما لم يعرف لذة العمل  
 خلفه صراع الوحوش ملفوف العضل  
 ونال أنجلو من منطقة حول خصره  
 فكأنهما ذئب وحمل

وراح الغشوم ثابت الجأش مبطناً  
 حتى دنا من صخرة اطلقوا عليها اسمه  
 استغاثت مما سقاها من دماء البشر  
 وطوح بالتمتى ثم التقى به فهوى

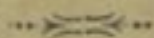
هوى أنجلو الى البحر مهشما كما هوت الوف قبله  
 ولكن الهواء والجدران والصخور رددت قوله :  
 « اعلى الحصون تمنعاً قد ناله ادنى البشر  
 ليس عرش ظالم يباق حتى الابد »

تولى الرعب فواد تبيير فلم ينم  
 أينما حل رأى شبح الفنى واقلقه صوته  
 «اعلى الحصون تمنعاً قد ناله ادنى البشر  
 ليس عرش ظالم بياق حتى الابد»

سقت نفس انجلو في كل حي بذور الامل  
 وعلم الشعب مقدار بطشه  
 ولم يطل عهد تبيير بعد ذلك اشهرآ  
 وسار ذكر انجلو في الارض مسير المثل •



قال الروح الحائر : فلما سمعت هذا واستوعبته نظرت حولي فاذا  
 الارواح الشاعرة قد انصرفت فحملت البك كلامها •





## الليلة الثالثة عشرة<sup>(١)</sup>

### اناسير العلاء

كنت ادون اسطراً في صحيفة . فدخل الروح الحائر ويده  
المصباح . قال : « ماذا تكتب » قلت : « اعبر عن عواطفني  
بالفاظ البشر الموضوعه لغير ما تريد بيانه » . قال : « طالما دونت مثلك  
وكل مادونت مدفون » قلت : « واين تلك المدونات » قال : « وما  
حاجتك اليها » قلت : « اني لم اقرأها في حياتك الارضية فلعل  
فيها ما ينفعني فأتلوه او ينفع الناس فأشره » قال : « انها في  
المنزل الذي خلصت فيه من الثوب المادي في صندوق خشبي  
عتيق في حراسة صاحب الدار وهي كل ما تركته من متاع الدنيا »  
قلت : « اني ذاهب اليه لأحصل عليها » قال : « لك ما تريد . »  
ولما كان الصباح قصدت المنزل القديم وحصلت من صاحبه على  
لفائف من الورق المكتوب فقرأت ما فيها فاذا بها فصول شتى  
كثبت في احوال متباينة اذيع بعضها واحتفظ بالبعض . والذي اذيعه  
« حديث العلاء » وهو مجموعة اناشيد شتى .

(١) اقرأ : الليلة الحادية عشرة والثانية عشرة وتجاوز عن السهو .

# حديث العلاء

## الفَسْبِرُ الاول

يا إلهة الشعر ! يا شرف الملكات يا صوت النفس والوجدان !  
يا ملجأ الحزين وموئل الشاكي من بني الانسان !  
يا أيتها النفس القوية الجميلة المجهولة يا ذات العطر الضائع في كل  
زمان ومكان !  
يا ترجمان الفؤاد ولسان القلب ومنطق الطبيعة !  
انت المعبودة التي لا ينأى عن تمجيدك الا ذوو النفوس الضعيفة  
الجامدة انت سيدة الآلهة في هذه الارض واشدهم قوة وانصرهم  
شبابا وافصحهم بيانا .  
عبادتك ترجع الى القرون الاولى قبل ان يعبد باكوس وقبل  
ان يسجد للزهرة .  
لقد انطلقت لسان آدم الاول منذ التفت فبصر بمخلوق جميل  
اسماه حواء .  
انت انطلقت لسانه منذ نظر الى ماحوله من جمال الطبيعة

وحسنا فخر ساجداً .

لقد ضقت بك ايها المعبودة ذرعاً وانا اليوم لا استطيع صبراً .

لا أقدر على السكوت ياربـة الشعر فلا سبيل الى الكتمان .

لم تضحى في نفسي ميزاناً يزن الالفاظ ولم تمنحيني مصقلاً .

اصقل به الكلام ولم تهيني زورقاً ذهبياً اخوض به عباب

ابحر الشعر ،

لم تهيني نفوذاً شاملاً على المعاني الجليلة لتجيني اذا دعوتها ،

لم تعطني موهبة من مواهب الشعراء السعداء الذين

يعبدونك ،

فاعذريني اذا لم افخرهم بالفاظ كألفاظهم لها رنين في الاذن

وطعم حلوة في الفم .

اعذريني ياربـة الشعر اذا كانت المعاني السهلة المثال التي

اظفر بها لا تبهر من يقرأها .

اعذريني اذا خلا تسبيحي اياك من الجلال والجمال اللذين

لا يلبق في حقلك تسبيح بدونهما .

واعتمدي ياربـة الشعر اني اغشقت واعبدك ولا انساك في

صحوي ورقادي !

قد يكون أقل العاشقين بلاغة أشدهم غراماً .  
انت أيتها الالهة الجليلة التي تظهرين لي ساعة فتحلين عقدة من  
لساني وترفعين غطاء من الاغطية الكثيفة التي تحجب الحقيقة  
عن جنائي!

اني ابهج بذكرك!

انت أيتها الالهة التي تقرين مني حتى اذا حاولت ان المسك  
غبت وذبت امامي كما يذوب الحلم الجميل قبيل اليقظة .  
انت التي املت علي اذ كنت باعلى الجبل قولاً بديعاً  
واريتني أعظم ما يرى واستنزلت علي نفسي اسمى ما ينزل به الالهام  
فلمحت بين النخيل عند غروب الشمس وجهاً دام برهة ثم اختفى .  
فخررت صعقاً ولما تنبهت لنفسي رأيت رأسي على حجر ووجهي  
ساحباً في بحر من دموع الخشوع والفرح .  
انت ايتها الالهة ادركتني على شاطئ البحر وأوصيت الحياة  
فأخذت اصرخ من أعماق قلبي حتى كاد صوت الامواج  
المتلاطمة يخفت بجانب صوتي .

كنت ايتها الالهة اعبدك سرا واخفي امرك عن غيري . واليوم  
عجزت عن الكتمان فما انا اعبدك على رؤوس الاشهاد

ان العاشق يبقى زمناً ما كما حبه ووجده حتى اذا يش باح لعل  
المحبوب يشفق أو لعل العاذل يرحم . اني اليوم كذلك وان لم اكن  
يشت منك ولن اياس ابداً . نجث ابوح بهواي لعلك ترحمين أو تشفقين !  
\* \* \*

جث يا الهة الشعر استعين بك على إلهة قاسية جميلة مثلك .  
اعطيني قيثارتك وصوتك ! اعطيني وتراً من اوتارك لا وقع عليه انغام  
النفس المعذبة !

ان الالهة التي اشكو منها واليهالاتزال في عنفوانها وقد هرم الدهر  
انها اهلكت الامم والاجيال وافنت الشجعان والابطال ولا  
تزال تتطلب المزيد !

ان لها في كل يوم الف فريسة . وتلك الفرائس كلها غالية  
عزيرة . ولكن الالهة القاسية لاتعفو ولا تصفح . انها تبذهن جميعا  
وتهرق دماءهن وهي باسمة مسرورة لانهن يذهبن سعيدات .  
ان تلك الالهة هي التي عبثت بسقراط وهنريال وقيصرواتيلا  
وبونابرت وهوش .

وعبثت بآلاف مثلهم من قبلهم وستعبث بآلاف بعدهم .  
ولكن يظهر لي ان الفرائس الكبرى هي التي لاتعرف اسماءها .  
أما التي نعرفها فهي اصغر بكثير ممن لم تذكر .

ان هذه الالهة القاسية تسمى « العلاء »



لو سألوني عنك ايتها الالهة وطلبوا مني وصفك عجزت ولكنني  
لا انكر وجودك الذي اشعر به كوجودي . حبك يملأ نفسي ويفعمها  
انك ممتزجة بعواطفي ودمي . انك ايتها الالهة القاسية تجرين في  
عروقي . انت واضحة مبهمه . ظاهرة غامضة .

اذا شئت ان انحت لك تمثالا أو اتقش صورتك على لوحة  
ترجف يدي وتعجز عن اتقان شكلك . وسرعان ماتفرين من  
امامي كأنك بنت الغابة في الطراد .

ولكن قد لمحتك مرة رغم ارادتك ! رأيتك اذ كنت يوماً في  
أشد حالات الضيق والاسى . وقد اسود بياض الدنيا في عيني .  
يوم كنت ارى نفسي محققاً مهزوماً وغيري ظالماً ظافراً . يوم رأيت  
الحياة عبثاً والجهاد عبثاً والثبات جبناً والصبر نوعاً من الجنون . يوم  
تملكني اليأس واحاط بي . يوم حاولت ان اشرب الكأس التي  
شربها سقراط لاخرج من المعركة الدنيئة التي طوحت بي فيها يد  
القضاء الظالمة فظهرت لي !

نعم رأيتك بوجه لا انسى جماله وقونه ورأيت جبينك الوضاء

مشرقاً كأنه مهبط وحي جليل ورأيت في يدك اليمنى مصباحاً من  
نور وانت تشيرين به كأنك ترشدينني الى السير الى الامام وفي اليد  
الاخري اكليل من الغار تومنين به نحو رأسي !

فنبهت من سكرة اليأس ونظرت اليك طويلاً . ولم أخجل  
من جمالك وقوتك ولكنني قلت لك بصوت أجش لم تسمعه اذناي:  
« من انت ؟ تكلمي ؛ فدنوت مني ووضعت قبلة على جيني ثم  
قلت بصوت لايزال دويه في نفسي « انا العلاء »

فنهضت وحاولت ان امسك بذيلك فطرت عني بأجنحة لم  
أرها وطارت نفسي وراءك شعاعاً . ثم صحت الصحوه الكبرى  
ولمست جيني فاذا عليه لؤلؤ العرق الرطب ولمست بدني فاذا انا لاأزال  
ارتجف من أثر قبلك كأنني معشوقه ضعيفه بين يدي عاشق جميل  
قوي ! هذه حمى العلاء !

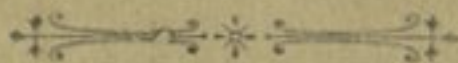
من تلك الساعة بعثت في هذه الحياة بعثاً جديداً ولبست  
للعيش نوباً قشيباً وقابلت الدهر والقضاء والفقر والحزن والألم  
بقاب قوي وثغر باسم .

منذ تلك الساعة هزأت بصحتي وراحتي وبذأت لاجلك  
السعادة والهناء منذ تلك الساعة شعرت بقوتي وشبابي !!

منذ تلك الساعة طلقت الحياة « الدنيا » طلقة بائنة ورأيت كل  
شيء دون الحظوى بقربك دوناً .

منذ تلك الساعة رأيت الدنيا بأسرها هينة في جنب رضاك .  
منذ تلك الساعة شدت لك في قلبي معبداً اجدك فيه كلما  
خلوت بنفسى . مصائب الدهر كلها تزول عني اذا عزمت على الصلاة  
لك . والوحوش الضارية التي تسمى ذاتها « انسانية » تخضع لي  
اذا ذكرت اسمك ان الله اعداني يحبونني لاجلك . واقرب اصدقائي  
يبغضونني لاجلك !

اني أعيش بك ولك !      وبك ولك سوف اموت !





## الفنبر الثاني

حذار ! لئلا لاتنال الجائزة !

ايتها الالهة القاسية ، اني منذ عبدتك نسيت كل شي ، دونك  
ووهبتك كل شي . ووهبتك حياتي وسعادتي فماذا وهبتني ؛ انك  
وهبتني خيالا عذباً وفكرة جميلة نسليني ولكن هيهات ان تحقق !  
اسمعي يارب المجد !

ألا تذكرين يوم كنت في قرية جميلة بجانب منبع ماء عذب  
وحولي غابة كثيفة اشجارها الباسقة ذات السموق تناطح السماء والسكون  
حولي هادي شامل و بين يدي فتاة حسناء تعارفت نفسانا لأول وهلة  
فدنوت منها وجلست بجانبها واصغيت الى خرير الماء ووضعت يدي  
في ردها وأخذت اقلب اجفاني في صحيفة جبينها تارة واخرى في  
صحيفة السماء ثم وضعت يدي على جبينها فاضطربت وارتجفت  
ودنت مني رغم ارادتها ولم يكن بين ثغري الملتهب وجبينها الا قيد  
شعرة فجلبت انت امامي بجمالك الباهر وقوتك القاهرة وصرخت  
في اذن نفسي بصوت لم يسمعه سواها مشيرة الى اكليل الغار :

« حذار ! حذار ! اثلا لا تنال الجائزة ! »

فاننفضت ونهضت ذعراً كمن رأى ما يهوله في حلم عميق .  
وابتعدت لساعتي عن المرأة بل ابعدها بيدي كأتى يوحنا يبعد سالوميه  
انني ايتها الالهة القاسية اخرجت قلبي من صدري بيدي  
وألقيت به تحت قدمي وسحقته سحقاً وحبست عواظني في سجن  
من الجفاء والغاظة كما يحبس الساحر نفرأمن الجن في ابريق سليمان .  
واذا عبث عابث بذلك الا بريق واطلق سراح عواظني فاني منها  
براء لانني اذا تركتها في سبيلها حرمت الجائزة !

لقد جعلت نفسي ايتها الالهة الفيور بلا قلب ولا عواطف  
لانك لا تحلين الجمع بينك وبين معبود سواك .

اتذكرين ايتها الالهة القاسية اذ عثرت بيت جميل فيه فرش  
وثير ورزق كثير وقلوب تحبني ونفوس ترجو رضاي . فلما ان آويت  
اليه واطمانت الى العيش فيه تجليت علي في اسعد اويقاتي وهتفت  
في اذني « اراك استوعبت النعم واستعذبت العيش الرخيم فانفض  
والا لاتنال » الجائزة ! »

فهمت من مكاني ورأيت ان الحلم اللذيذ لا يطول . فتعلق  
الناس بي وقالوا الى اين ايها المسافر الذي لا يلتقي له رحل والطالب

الذي لا يشبعه علم والطامح الذي لا يرضيه مجد . قمت لقد كتب علي ان  
اطوف الارض وان أطفئ ظمأي بالحكمة وهيئات ان يقري قرار  
أو يعرف ليلى من صبحي !

أيها الالهة القاسية لو ان الطبيعة الظالمة مدت في اجلي وذرعت  
فضاء المعمور والمهجور وطففت الصحارى وخضت غمار البحور  
واستوعبت حكمة البشر وعركت الدهر حتي غالبت القدر فهل انت  
قائعة بذلك مني ؟ وهل انت قائلة لقد نات ايها الشقي بحبي تلك  
الجائزة ؟

لقد اعطيتك حياتي وعقلي وراحتي فماذا اعطيتني أيها الالهة  
القاسية ؟

اعطيتني الا ما لا اطيعها وخبيرة لا اخرج من جبالها وشكوكاً  
لا يقين وراءها وليلا مظلماً لا فجر بعده !

انك تمنيني بانخلود ! وما هو انخلود ايها الربة الخادعة ؟  
أليس هو بقاء ذكر فان في ارض فانية ؟ أليس هو سطر يكتب في  
الهواء لتذروه الرياح . أليس هو خيال كلما تبعته تركني وكلما  
اقربت منه ابتعد عني ؟

ان الاهرام مهاد رسخت جدرانها وتوطدت قواعدها واتحمت

صخورها لا بد زائلة . وقد نظرت يوماً الى الغمام الذي يسبح فوقها  
في بحر من الاثير وسألت نفسي اي الاثنين اخلد ؟ أتلك الصخور  
الراسخة الباذخة أم تلك الامواه التافهة المتجمعة في كتلة تحولها  
وتذيبها اشعة الشمس اللطيفة ؟

نظرت الى حبات الرمل الحقيمة التي تعد في موضع القدم  
بالملايين وسألت نفسي اي الاثنين اخلد أتلك الاهرام العظيمة ذات  
الاحجار الجسيمة ام تلك الحبات الحقيمة ؟

نظرت الى ذرات الاثير في الهواء وهي لا ترى بالعين ولا تلمس  
بالكف لانها اللطيف من اللطف وسألتها أنت اخلد ام ماشاده مائة  
الف من بني الانسان في ثلاثين عاماً من الزمان ؟

فأجابني الغمام وحبات الرمل وذرات الاثير : « الا انا جميعاً  
اخلد من اهرامك الزائلة لاننا كنا قبليها وبعدها سنكون . اما هي  
قبل رفع دعائهما فلم تكن وبعدها انقضاها لن تكون !

أليس هذا هو الخلود الذي توعدون ؟ ان حبة من الرمل  
وقطرة من المطر وذرة من الاثير ابقى على مدى الدهر من حياة  
الانسان واعظم اعماله !

بل ماذا فخرنا وخلودنا . وماهي تلك الانسانية المعذبة الضالة

المضلة؟ الا يذكر اسم كاتيلينا كلما ذكر اسم شيشرون الا يخلد  
اسم الا سخر يوطي خلود اسم المسيح؟

يا نفسي الضعيفة الجاهلة ويا فؤادي المعذب الضال كيف السبيل  
الى القوة والعلم؟ كيف الطريق الى الهدى والسعادة؟

يا قوى الارض الظاهرة والكامنة! يا سرار الحياة الواضحة  
والباطنة، هل عندك لتلك الاسئلة من جواب؟ بل انت ايتها الالهة  
القديمة يا ذات التصرف في العوالم كلها هل لديك قول فيه فصل  
الخطاب؟

ان حكمة الفلاسفة مذ كانت البسيطة في طفولتها وحنكة العلماء  
بعد ان بلغت الانسانية كهولتها وكتب السماء والارض كلها  
عاجزة عن الجواب.

ان الناس حولي يذهبون ويميتون وهم في كل لحظة يحزنون  
ويفرحون ويعيشون ويموتون. وان لهم لاصواتاً يملأ دويها الفضاء.  
ويضيق دون تموجاتها الهواء. ولكنني اذا التقيت على الانسانية  
سواء لي سكنت حركتها وهدأت اصواتها وصمتت افواها ورفعت  
ايديها الى علي كأنها تظن به ما يشفي غليلها ويطفي نارها ثم تعود مطرقة  
برأسها الى الارض بندم يخالطه اليأس!

مسكينة انت ايتها الانسانية ! انك مخدوعة كما يخدع عشاق  
المجد . ان ما يخدعهم وهم باطل . اكليل من الغار يظهر امامهم ويختفي  
ستضعه الربة الخادعة على قبورهم لا على رؤوسهم .

اما ما يخدعك انت فأكبر واعظم ولكنه خيال .  
اننا جئنا الى هذه الارض اعتباراً ونعيش فيها وسنذهب عنها  
كذلك . وحظنا في يد قضاء اعمى ظالم يقسم بيننا الافراح والاتراح  
بلا عدل ولا نظام

أيتها الربة الخادعة كم اقبلت على لذة احتاجها . وكم تعلقت  
بمخلوق احبه وكم سكنت الى مكان ارتاح اليه فخرمتني لذتي  
وابعدت محبوبتي واقفرت مسكني وقلت لي اياك واللذة والمحبوب  
والراحة لئلا لاتنال الجائزة !

انتي لا ازال اسيرك بعد ان كنت تبينت غدرك وخداعك . ان  
قوة كامنة فيك وخفية عني تجذبني اليك رغم ارادتي . ترى اتدري  
الابرة سر الشمال ؟ ام يدري الفراش معنى اللهب ؟

انني فريسة ظالمين لا يشفقان ولا يرحمان . روح حائر وحب  
قاهر الاول لا يقر له قرار والثاني يجلب العذاب والضجر !



## المسبر الثالث

### تعذبي وتعالي

رأيت نفسي في الطريق وحيداً بعيداً عن الناس غريب الوجه  
فيهم والقاب والجنان . فتأملت قليلاً في حالي واطرقت ثم بكيت .  
بكيت طويلاً لاني غريب هنا وغريب هناك . غريب في  
وطني وغريب في سائر الاوطان . اشعر بانني في حلم عميق تنبهي  
منه كبار الحوادث فلا اوشك ان التفت حولي حتى اعود الى وادي  
التيه الذي اهمم واتالم فيه .

ان آلامي كتيار الكهرباء ايجابية وسلبية آلامي الايجابية  
هي التي اشارك فيها غيري من البشر الا انها مضاعفة حادة .  
مايخذش سواي يجرحني جرحاً مؤلماً ومايجرح غيري يدميني .  
مت مراراً وبعثت . نعم مت . انفصلت عن العالم مرة واحدة  
وسكنت نفسي واكتفت بذاتها ثم عدت الى الحياة من جديد .  
لنفسني في كل حين سياحة تطوف فيها بعوالم غريبة وتزور فيها  
شقيقاتها ثم تعود . وبعض هذه السياحات قصيرة وبعضها طويلة .

بعضها لا يدوم اكثر من لحظة و بعضها يطول اشهرآ .

وما الموت الا احدى تلك السياحات !

اما آلامى السلبية فهي لي وحدي . وليس لها سبب معروف .  
تعذيب مستمر وتعليل طويل . لا تمضي لحظة الا ولي ألم جديد .  
أريد شيئاً ولكن لا أدري ما أريد . لقد جئت الى الحياة فوجدت  
بها قوماً لا اعرفهم فانخذت لي ركناً ولزمت الصمت .

انني اشعر بنقص فيما حولي . وسأبقى مصغياً مشرباً متطلعاً  
التماساً لصوت الفته اذنى ووجه تعودته عيني ونفس تفتقدتها نفسي  
ولكن صوت من ووجه من ونفس من ؟

أيتها الالهة الجليلة التماسية اننى التمس صوتك ووجهك ونفسك!  
اننى اشتبهك كما يشتهي العاشق معشوقته . ان الحب الافلاطوني  
لا يكفيني . اريد حب ايقور . اريد ان اتمتع بك . أريد أن  
أعبث بك واقهرك كما عبثت بالالوف وقهرتهم !  
أن يدنى وينك ثاراً قديماً وجهاداً طويلاً !

\*\*\*

أمرت واحداً أن يضرب في الارض ويسير في مناكبها فهجر  
وطنه وأهله في مستقبل عمره وقطع العالم من المشرق الى المغرب .



وهو يهبط الوديان تارة ويتسلق الجبال اخرى ويعاشر الوحوش  
الكاسرة مرة ويعرض نفسه لحيتان البحر مرة ثانية . وكلما وهن  
عزمه او هبطت همته دفعت به بيدك القوية دفعة اخرى فتجدد فيه  
ما خلقه الضنى وابلاه الضنك ولا يزال كذلك حتى يلتقى حتفه في  
اواسط القارة السوداء بين نوع من بني الانسان لا يأنف ان يأكل  
الانسان . حينئذ تضحكين ملء فيك وتركين جثته الخاملة . لقد  
تم لك ما كنت ترغيبين ولكن ماذا جنى ؟ انك توعزين الى ابناء  
جنسه البسطاء فيقيمون له قبراً عالياً وينحتون صورته في قطعة من  
المرمر ويضعون فوق رأسه أكاليل الغار لانه كان مكتشفاً !



وهذا الثاني اسكرته بخمرتك التي اذا ذاقها المرء مرة لا يفيق  
حياته . وقلدته سيفاً واركبته جواداً واشعات نفسه بنارك المقدسة  
واودعت عينيه لمعة وضية . وقلت له اصرخ في الناس يهابوك ومر  
الجندي يطيعوك واتبعني افتح لك الارض واقلدك صولجانها واجلسك  
على عرشها !

فسار ! ورفع صوته فاصغت اليه الامم وجرد سيفه فوجمت  
الجيوش وحمل على الممالك فنتقمقرت امامه الملوك . أشار بيده فسقطت  
التيجان من على الرؤوس واتلت العروش . منحرت جنوده الانهار

وراءه وشق البحر بمهده فجف ماوه . واعتلى صهوة جبال الالب  
وأذاب بانفاسه الحارة جليد روسيا . ووهبوه سيف فردريك الكبير  
فقال سيفى أولى وأجدربى .

نصب اخوته واقاربه واصدقاه ملوكاً وصير لنفسه في كل  
مملكة بلاطاً . مد يده الى الشرق فسجد امامه . بعد ان قهر  
الغرب فقبل اقدامه .

وهبته القياصرة كنوزها وخطبت ملكات الارض رضاه وأوشك  
أن يقول لمن حوله انا ربكم الاعلى ! ونظر الى وجهك فرأى بسمة فتانة  
فسألك فقلت له الى الامام ولو فوق الاجسام .

انك كنت لاتزالين تشجيعينه لانك كنت لاتزالين تشتهينه .  
فنظم الحكومات . وسن القوانين . حفر اسمه في لوح الخلود  
بجانب اسم صولون وفيثاغور . بعد ان حفره فوق اسماء الاسكندر  
وقيصر وهنوبال .

ثم ماذا ؟ ثم استغنيت فتخليت عنه فهزمه الاعداء شر هزيمة  
وهو يقود خير الجنود . يقولون انه شاخ قنسى فنون الحرب . كلا !  
يقولون انه ضعف فضعف ذهنه وكلت ذاكرته . كلا . يقولون  
تكاثر الاعداء وثبات جأش ولنجتون وحذق بلوشر . كلا !

السبب سهل ولكنه غير معروف .

انت يا الهتي المعبودة المحبوبة استغنيت فاغضيت . انت يارربة  
الحكمة الكبرى ويا حافظة السر الاعظم تخليت فابليت . انت يا فاتنة  
الغناء ويا خاذلة الاقوياء وناصره الضعفاء تحولت فحولت .  
كالمعشوقة الصبية تنهك عاشقها في شيخ فتناى عنه لتقرب فتى جديداً  
لو كان هذا العاشق متواضعاً اما كنت تحسنين اليه في غضبك  
احسانك اليه في رضاك كان لا يريد ان يرغم ولكنه كان قوي القلب  
والنفس فرميت به في جزيرة قحلاء في وسط المحيط . وقضيت عليه  
ان يقضي ست سنين على الصخر المحاط بالاقيانوس لعله يلين فلم  
يزدد الا قوة . فبطشت فقضى !

لقد اخترت رجلاً آخر ولكنه فصيح اللسان قوي الجنان  
رحيب الصدر كبير القلب فانتشلته من بين يدي ابيه الوضع  
واخترت له ان يحكم امة باسرها !

فتحت له الطريق واخضت سبيله وجعلته بعين واحدة (١) يرى كل  
شيء . البسته درعاً من المغنطيس ووضعت في صوته انعاماً لم يعتد  
الناس سماعها واطلقته يخطب فيهم حتى سحرهم فلكوه قلوبهم .  
فلما جاء اليوم الذي تعدينه له دفع عن وطنه اعداءه وقال لأمته  
الخامدة انهضي فنهضت ثم سيرت فسارت .

---

(١) فقد ليون غمبتا احدي عينيه في صباح .

واراد ان يخطو الى الامام خطوة فقلت له بصوتك القاهر  
مكانك . فوق فامطرت عليه المصائب : نصرت عليه اعداءه  
واعداك ! خيلت من امامه امه واغضبت معشوقه فهوى كمن  
هوى من قبل . وواريت رفاته لحدا مهجوراً بين وطنيه القديم  
والجديد .

اني ارى قسوتك بعيني والمسها ولكنني لا استطيع الابتعاد  
عنك . انك تجديني لاتي اضعف منك . اليس القضاء عبداً من  
عبيدك اليس الدهر رمزاً عليك اليس صلواتنا وتهجداتنا وآهاتنا  
متوجهة اليك ؟

يا ربة المجد ليس لنا من يدك مفر ولسكننا لن نجعل صنعك .  
ان علمنا بمسيرنا يعزينا .



## الفصل الرابع

مبصر وضرير

كنت في حياتي استنجد بالقوى الخفية واستغيث بالالهة  
المستترة ولكنني منذ اليوم استنجد بالقوى الظاهرة واستغيث  
بالارباب التي اراها امام عيني . كنت أحسب ان كل عظيم لا تراه  
العين البشرية وان عالم الخفاء وحده هو الشامل للعقل العام والنفس  
المديرة ولكنني أصبحت اليوم أرى ذلك العقل وتلك النفس فيما  
حولي، فيما يقع عليه نظري، فيما يسرني وما يحزنني، فيما تشعر به روحي  
وما يلمسه حسي، في الحيا الجميل، وفي الوجه المشوه، في البحيرة العميقة  
وفي الجبل الباذخ، في الزهرة البديعة، وفي الشجرة الظليلة . اني أرى  
العقل العام والنفس المديرة في عقلي ونفسي كما أراها في كل ذرة  
من ذرات الوجود .

اذن لاسر هناك ولا ستار . انما هناك مبصر وضرير . اما  
الحكمة الكبرى فلم تتغير ولن تتغير وما رآه سقراط وباح به لتلاميذه  
واستهان الموت لاجله هو ما أراه الآن امام عيني واكاد امسكه بيدي .  
يامعابد مصر الجليلة احتفظي باسرارك المكنونة ويا كهنة لاهاسا

لانبوحوا بالخفايا المكتومة فليست في حاجة اليها . ان قلبي صار  
معبداً ونفسي صارت هيكلًا . وعيني اخترقت حجب الوجود  
نظرت الى طبائع الاشياء فدعنتني الى الامعان والتأمل .  
ملأت المطامع نفسي فدعنتني الى العمل . أحبت قومي وارضى فعلني الحب  
الاخلاص . عشقت الرجال والنساء فشقت في العشق تارة وسعدت  
أخرى . أبغضت أعدائي واحتقرت حسادي واضدادي  
فامتلاً صدري بالعواطف المتضاربة . تمنيت ونلت بعض الاماني  
وخسرت معظمها فعرفت كيف تكون لذة الفوز وكيف تكون  
حسرة الفشل . فارقت اعزتي فراقاً أبدياً فبكيتهم وبكيتهم ووقفت  
على قبورهم حاسر الرأس خاشعاً وسجدت حيال اجسادهم البالية كما  
سجدت في صباي حيال المسجد الحرام . قاسيت مراراً آلام الجوع  
والتعب وشعرت تكراراً بوخزات الحاجة وكذلك أحسنت الى  
الطبيعة حيناً فلم تحرمني ما كنت اشتهي الا قليلاً . اتخذت من  
الناس رفاقاً واخلصت لهم فلم يخلصوا لي . احببتهم وابغضوني كنت  
ارجو الخير لهم وهم يحسدونني . رأيت لي في كل مكان عدواً وانا  
اريد ان أكون صديقاً للجميع .

كل تلك الحوادث الصغيرة في ذاتها الكبيرة اذا اجتمعت

علمتني معنى الحياة وكشفت لي الستار عن معظم الاسرار . ان ذنوبي  
هدبتني وذنوب غيري ارشدتني . تاريخ الامم رسم لي الخطة  
الكبرى وتاريخي اضاء لي السبيل . لم اصف الى فهمة الضاحكين  
الا ابتسامة فاترة ولكنني اضفت الى المحيط الفاض بدموع البشر  
نهرًا غزيرًا . وكل دموع لها عندي قصة . كل دموع من دموعي  
ليست الا ذنبًا متبلورًا أو عاطفة سائلة . في ذمة المحيط العظيم  
الذي تدفق فيه هموم الانسانية تلك الدموع الغالية . ان كان هناك  
عالم للارواح فذلك المحيط ملحق به لان النفوس لا تطيق الانفصال  
عن احزانها . احزان نفسي ثيابها . وهمومها طعامها وشرابها .  
سأترك سطرًا لابناء القرون القادمة كما ترك لنا مفكرو العصور  
الخالية اسطرًا . ان أبناء كل جيل لا يحبون مفكريه ولا يتعظون  
بقولهم ولا يريدون سماع صوتهم لانهم ومنهم ومثلهم ، لان حياتهم  
امامهم لانهم يعرفون اشخاصهم . لان بصرهم وقع عليهم والانسان  
قليل الثقة في من يعاصره . كلما يدنى القتي من القبر يدنيه من المجد  
الحقيقي . لان الموت وحده قادر على ان يزيل ما يحيط بنا من التهم  
هو تزيق السموم كلها هو مطهر الانسان من عيوب الحياة الفانية .  
كان لبعض الناس دين ثم ذهب وكانت لهم عقيدة ولكنها هالت .

فجاءهم دين جديد والبستهم عقيدتهم جديدة حلتها . هذا القول كاف  
ولا ازيد . ليسوا يخشون ان يعذبهم رجال الدين لان أقل حسنات  
هذا الزمان حرية الاديان . وليسوا يخشون ان يتعد عنهم الناس  
لان معظم الناس جبناء ويخافون من يقول الحق جهاراً . ثم اذا قاطعوه  
من هم الناس حتى تحزنهم قطعيتهم . أليسوا تلك الموجودات الضعيفة  
التي يشتريها معدن دنيء يسمى جهلاً منها نفيساً . أليسوا هم آكلوا  
لحم بعضهم بعضاً . أليسوا هم الجناة على نفوسهم ثم البارثون من  
ذنوبهم الى ارباب لا يعلمونها ولا يشعرون بوجودها . أليسوا هم ذلك  
القطيع الابله الذي يأتي ان يسير بلا من يسوقه بعصاه ثم اذا  
داهمهم الذئب سلموا اليه حارسهم ليقترسه ، ينجح أيتها الانسانية  
الآكلة المأكولة ؛ ينجح أيتها الانعام الظالمة المظلومة ؛ انك  
لا تستحقين عناية عقل كبير ولست خليقة باحسان نفس كريمة ،

لماذا طرد فرعون بني اسرائيل من مصر ثم تبعهم بجنوده ؟  
لماذا سخر بنو اسرائيل من عيسى ثم صلبوه ؟ لماذا حاربت قريش محمداً  
ووصمته بالجنون ورشقه فتيانها بالحجارة ؟ لماذا انتقم نبيرون من  
اتباع المسيح بتعذيبهم واحراقهم واطعام الوحوش اجسادهم ؟ لماذا  
ذبح الكاثوليك اخوانهم المحتجين كما تذبح الشاة ؟ لماذا احرق



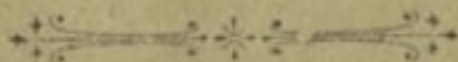
كالقنان الاستاذ سرفيه وكفرت الكنيسة جاليليه ولماذا أمر احد خلفاء  
الاندلس السوقه ان تبصق في وجه ابن رشد وامر سواه باحراق  
شعر المعري لماذا وقع جمال الدين اسيراً في الاستانة وبقى فيها حتى  
قتلوه ؛ لماذا قضى اعداء اميل زولا عليه في بيته وهو في جنب زوجته ؛  
لان موسى وعيسى ومحمد وبولس ولوثيروس وسيرفيه وجاليليه  
وابن رشد والمعري وجمال الدين واميل زولا كلهم فقهوا ما لم يفقه  
معاصروهم وفطنوا الى كلمة لم يفطن اليها سواهم وقالوا بما لم يقل به  
أحد قبلهم .

اذن هي غيرة الانسان من الانسان . هذه آثار حسد الجاهل  
لمن عرف . حسد الضعيف القوي .

حقد الضرب على المبصر . لا اكثر ولا اقل ؛ وقدما كان في  
الناس الحقد والحسد .

مسكينة أيها الانسانية .

انني الليلة لم اتغن بذكر الهة المجد ولسكني رثيت بني آدم .



التسبر الخامس

ابن العدل الذي تدعون

هل يأتي يوم نفتح فيه قلبنا ونشكو همومنا لمن نحب؟ ام نزل الى  
قبورنا صامتين كآمين اسرارنا في افئدتنا الحزينة .

هل يأتي يوم ننظر فيه الى الماضي باسمين بسمه ربان السفينة  
بعد العاصفة عند اشرافه على ثغرامين يلجأ اليه فيقيه كل خطر .

هل يأتي يوم ننظر فيه الى الماضي السحيق نظرة الاطمئنان  
والفوز بعد الصبر المكمل بالظفر .

اجيبي <sup>اجيبي</sup> أيتها النفس فقد عودتني الاشراف على المستقبل  
واخترق حجب الغيب . اجيبي أيتها النفس ماذا ترين محبثا لنا  
في ثنايا الايام وزوايا الزمان .

كم حدثتني بمحادث صادقة وكم نبئتني بما لم يكن لي به من علم .  
انى اراك تردد بين الشك واليقين . اراك تختلف بين  
النور والظلام .

سبيلك اليوم غير واضح ودربك وعرو الخطة التي رسمها لك  
الدهر غير جلية .

مسكينة انت يا نفسى • لقد امرك الصبر الطويل واضعفك

• التمني والتعليل

رايتك قديماً ذات اجنحة من العزم والهمة وبصر نافذ كأنك  
استعرته من نور منرفاً وقلب قوي يقودك بجأش ثابت الى اصعب  
المعارك وأوعر السبل فكنت تخلقين باجنحتك وحيدة كالنسر  
الجليل الى ارقى سموات الفكر البشري وتخرقين ببصرك الحاد  
حجب المجهولات والخفايا وتقاومين بقلبك أشد العقبات وتغلبين  
عليها . كنت يا نفس مملوءة بقوة الشباب كنت بين النفوس بكرأ ذات  
جمال وعمفة •

اما اليوم فقد نالت منك الخبرة مناها ولقمتك الايام درسا مرأ •  
فقللت من حدتك والانت من شدتك وعامتك الوقوف عند حدك •  
ولكن ايها النفس هل لك حد تقفين عنده ؟

هل هناك افق ينتهي لديه بطشك ؟ هل في الكون كله دائرة  
لا مجال لك وراءها ؟ كلا ، ايها النفس ان العقل والحق والعدل  
والطبيعة كلها تبيح لك الكل لانك الكل في الكل • انت سيدة  
مطلقة ومالكه متصرفه فيما يقع تحت حرك من سماء وارض ونور

وكواكب وبحار وعوالم خفية لا أراها انا وترينها انت بعين ترى كل  
شيء ولا يغيب عنها في الوجود ذرة !

يقولون الانسان حقير في جنب الخالقة وانه اقل من ذرة حبال  
العوالم الكبرى • كذبوا انهم لا يعلمون • قد يكون الانسان حقيراً  
بجسمه ولكن ليس الجسم في نظري شيئاً مذكوراً ولكنه عظيم  
بنفسه وهي كل شيء ••

هل لنا غرض عظيم نسعي لندركه • هل للانسانية التي قصت  
الوف الاول من الاجيال في جهاد ضد العناصر الاولى وضد قوى  
الطبيعة الظاهرة والكامنة غاية كبرى يسير اليها من يبقي من البشر  
ممن لا يهلكون في الطريق ؟

أم نحن مخلوقون عبثاً للتعذيب والفناء ؟

لماذا ترفع الاصوات في كل صباح ومساء بالصلاة ؟

لماذا تشرق الشمس وتغيب ؟

لماذا يسعد قوم وبشقي آخرون ؟

لماذا كونت هذه الارض وملي • سطحها ماء ونحت الماء

نار تتأجج ؟

لماذا يساء الى البعض ويحسن الى الآخرين ؟

لماذا يراد بالبعض شر ويريد الله بالبعض خيرا ؟

لماذا يتحکم الانسان في اخيه الانسان ويساعد الظالم كثيرون  
يمنون المظلوم بالهناء والرفاء بعد المات بسنين .

لماذا يذنب البعض فيجني غيرهم ثمار ذنوبهم ويحتلمون  
ما كان مقسوماً لهم من عقاب وعذاب اليم . اليست هذه قسمة  
ضيزى وظلم عظيم ؟

ترى تدرى ذنوب من تريد التكفير عن سيئاتهم ؟

ترى تمحى خطاياهم ويبقى لنا نصيبنا من التعذيب ؟

انهم يقولون في الكون عدل وميزان لا يعتريه اختلال ولا  
ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ويرفعون اصواتهم مهلاين  
كلما انتقم الحكام من مجرم أو كلما وقع ظالم في مخالف مظلوم .

ولكن مكانكم ايها الناس ! هذا الذي تهلمون وتكبرون  
لاجله ليس الا من نوادر الحوادث ومستثنيات القواعد . انهم  
انتقموا اليوم من مجرم اوقعه سوء حظه في ايديهم . ولكن كم مجرم  
يقترف افظع الذنوب فلا يرى او لا تناله يد العقاب .

وان انتقمتم اليوم من ظالم لمظالمكم فكم وكم من ظلام فروا ولم  
تنلهم يد العدل الذي تدعون . وكم من ظالم يعاصرنا نرى ونسمع  
ونلمس فظائمه ولا نستطيع ان نقول له مكانك لانه قادر ان يسحقنا  
بقوته

ان امما لا تحصى ولا تعد لاتزال باسرها في اسرها . ان اجيالا  
من السنين مرت متواترة متعاقبة على العالم وهو بين من ظم الظالمين  
فاهرقت الدماء وازهقت النفوس وانتهكت الاعراض واهينت  
الحقوق . فآين كان العدل الذي تدعون .

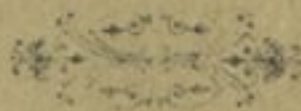
تقولون ان ذنوب القرون الاولى انتقم لها في القرون الوسطى  
وذنوب القرون الوسطى انتقم لها في العصر الحاضر . قد يكون هذا  
ولكن لقد جاء العدل متأخرا . وماذا يعود على المريض اذا اسعفه  
الطبيب بالعلاج وهو دفين ؟

بل ماذا عاد على المسيح من العدل بعد ان صلبوه وماذا استفاد  
جاليليه بعد ان قذفوا به من حلق . وميشيل سرفيه بعد ان احرقوه ؟  
الناس الهوا الاول وعبدوه ومجدوا ذكر الثاني وعظموه واقاموا  
لثالث تمثالا نكايه فيمن ظلموه ولكن الم يقل المسيح وهو محتضر

يا الهي لماذا تركتني ؟ ألم يدق عنق جاليليه وهو مكتشف  
دورة الارض . ألم يحرق سرفيه حياً وهو أول قائل بدورة الدم  
ماذا أفادت الاول عبادة الناس له والثاني تبجيلهم ذكره والثالث  
اقامة التماثيل ؟

ان هذه الجرائم تكرر في كل عشية واصيل . وكل جيل حافل  
بذكر فظائمه ومظالمه . فلو قلنا ان العدل جاء متأخراً في بعض  
الحوادث فلماذا يبجي ، متأخراً فيما يتلوها . لماذا احرقت جان دارك  
ولماذا ذبح دافل ولماذا عذب ايوب ؟

ان الناس ينقمون من محاكم الارض البطيئة اخطأوا فلينقموا على  
محكمة اخرى فانها أبطأ المحاكم !



## الفئيد السادس

### الحقيقة

ليس في الدنيا صديق !

ليس في الدنيا باسرها صديق واحد يمكنني ان اجلس اليه وافتح  
له خزانتي قلبي وأمنح فؤادي الحزين امامه الحرية المطلقة ثم ابكي  
وابكي وابكي حتى تعود دموعي قطرات من الدم الثاني فاسمع منه  
كلمات الامل والحزن والاشفاق وترفع نفسه النقاب عن الاخلاص لي  
فيهدأ بال نفسي الشقية . لم اكن خيراً في هذه الدنيا كما تطلب  
مننا الاديان والآداب الموضوععة وكما توحى الينا روح الخير التي  
ترفف على العالم بجانب روح الشر الفظيعة . ان في عيوباً كثيرة  
وفي اخلاقي نقائص ومساوي كغيري من البشر ولكنني واأسفاه  
عاجز عن الخلاص منها دفعة واحدة وان قدرت على بعضها فاني  
آتي عليه بالصبر والجهاد والثبات وأفرغ جهدي في الخلاص من  
البعض الآخر ولكنني واثق من اني لا ازال بعيداً عن أول  
مرتبة من مراتب الكمال . على اني مع هذا لم أمسس اخطأ لي في  
الانسانية بشر وليس في قلبي الحزين مكان للحقد والغيط وان كان  
هذا القلب يعرفها فهو لا يعرف الا حقداً وغيطاً وهمين لا يسكنانه



الا ليفارقاه في لحظة من الزمان وان ملكت الشر لخصم فبهيات ان  
انتقم لنفسي منه . ولم ينل عدوا من اعدائي خير الا سرني فلماذا  
يا إلهي ان كنت تسمع صوتي لماذا ليس لي في الدنيا صديق ؟

اني اتحاشى الذنوب لا احتفاظا بوداد الناس انما لانني لا اريد  
ان اكون مذنباً امام نفسي واذا اقررت ذنباً فليس هذا في  
طاقتي منعه ولا بد ان يكون من الذنوب التهرية التي هي أقوى مني  
وأشد من طبعتي ثم انني اذا اقررت ذنباً لا ادخر وسعاً في  
الاستغفار منه والتوبة عنه والحزن الشديد عليه حتى امحوه بدموع  
قلبي . ليس يشغلي ايعرف الناس هذا أم لا يعرفونه فلماذا يا إلهي ليس  
لي في الدنيا صديق !

اذا كانت ذنوبي الخبيصة بي هي الوحيدة في صحيفة هذا  
الوجود فان استغفاري وندمي وأسفي جديرة بان تمحوها . ولكن  
لكل الناس ذنوباً كذنوبي ولكل الوري حتى الحكماء منهم عيوب  
وكثيرون لا يكلفون انفسهم مشقة الندم والاستغفار ويستكبرون  
ان يخضعوا امام النظام القاهر ويسبرون في طريق العصيان فيها بهم  
الناس ويحاربونهم بل تحاييهم الطبيعة نفسها وتمنحهم عطاياها وتخلص  
لحم القلوب فهل هذا هو العدل الطبيعي أم هذا خداع تراه العين

البشرية فتظنه حقاً وهو خيال باطل . اذا كان هذا خيالاً باطلاً  
والطبيعة والانسانية تحترمان الحب والاخلاص والحق . واذا كان  
الله العظيم يعفو ويصفح فلماذا ليس لي في هذه الدنيا صديق ؟  
اذا كان العالم قائماً على الخداع والغش والنفاق والاحتيال والقوة  
الغشومية ولا يفوز في ميادين الصعوبة ولا يحمل تيجان الفخار فيه  
الا الاندال والاشرار الذين يتقنون صناعة الختل والظلم ويبقى  
المخلصون مهانين أذلاء معذيين فيه فايقنع الاخيار بأنصبتهم !  
ولكنهم يقولون ان الباطل لا يدوم وان الظلم زائل وان الحق هو  
السيد السائد في نهاية الامور وأراني رغم ما أراه من حوادث الحياة  
المحيطة بي في كل صباح ومساء في الشرق والغرب والشمال  
والجنوب ميالاً لهذا الاعتقاد محباً لنصرة العدل والحق فلماذا يا الهي  
ليس لي في الدنيا صديق ؟

اليس في هذه الارض انسان مثلي عواطفه كعواطفني وخلاله كخالتي  
وضعفه كضعفي ومعتقده كمعتقدي فئاتلف وتتحدا واعزيه ويعزيني  
وأعيش على الغذاء الذي تقدمه نفسه لنفسني ويعيش هو أيضاً على  
الغذاء الذي تقدمه نفسي لنفسه ؟ اذا كان في العالم هذا المخلوق  
فأين هو وكيف ان الطبيعة العظيمة التي تزن الحوادث بمقدار معلوم

وتدبر حركات القضاء والقدر وتدهش العالم بالمخبتات الغريبة  
والاتفاقات العجيبة التي يسميها البشر لجهلهم وغياوتهم وعمام عن  
النظام السائد « مصادفات » كيف ان تلك الطبيعة لم تجمعني بعد  
بهذا الصديق ؛ وان لم يكن في الارض مثل هذا المخلوق فلماذا  
لا تجود به العناية لماذا تركت وحيداً فريداً باكياً متحجاً صارخاً من  
اعماق نفسي : ليس لي في الدنيا صديق !

ان البعض يرون في ذلك حكمة اخترعوها وتعليلها ابتدعوه  
وهو ان النفوس لا تنضج الا بالآلام والاحزان وان الطبيعة اذا  
اختارت بعض النفوس هيأت لها من اسباب الهوم لتنضجها لذا  
كان سائر الفلاسفة والانبياء وقادة الامم والشعراء على نصيب وافر  
من العذاب الاليم ولذا كانت تلك الآلام دليل السعادة العقلية .  
فهل هذا يأتها الطبيعة حق وصدق وهل تلك النار المشتعلة في القلوب  
وتلك الآلام التي تلذع كآنياب الافاعي ويشعر بها في الفؤاد كما  
يشعر الملسوع بالسموم تسري في بدنه هل تلك الآلام هي نعمة  
في شكل تقمة وسعادة في شكل شقاء ؛ هل النفس الخزينة هي من  
تلك النفوس التي ارادتها الطبيعة لتكون سموعاتضيء للانسانية وتمحرق  
ذاتها ؛ هل النفس المعذبة شعلة وهاجة تفتى لتنير للغير ؛ هل هي ضحية من

ضحيا الانسانية التي تقامى الآلام في الحياة لتمجد وتعبد بعد الموت؟  
إذا كان هذا فترض النفوس المعذبة بقسمتها وتقتنع بنصيبها ولا  
حاجة لها بعد اليوم الى الشكوى والنجوى ولن تسائل الالهة بعد الساعة  
لماذا ليس لنا في الدنيا صديق ؟

ولكن واحسرتني واندمي اذا كان هذا الحلم اللذيذ السعيد  
وتلك الفكرة التي ينادي بها الناس ليست الا صورة في الخيال  
كالصور البديعة التي يُعنى بها الاشقياء في هذه الحياة لتخف عنهم  
آلامهم فيموتوا ويذهبوا صابرين كاظمين وحقيقة الامر ان نظام  
العالم اختار لهم الشقاء الابدي وليس لهم جزاء لاهنا ولا هناك .

واحسرتني اذا كانت تلك الامنية العذبة هي كحقنة الافيون  
تؤخذ لتسكين الآلام المتحركة فاذا سكنت الآلام عادت الينا  
الحقيقة سافرة هازئة بآمازينا وخيالاتنا

اذا كانت هي الحقيقة المجردة وقضت علينا العناية التي  
تدبر الحياة البشرية والتي لا يعرف كنهها ان نبقى كذلك وان  
يتمتع سوانا حالما تقامى نحن احوال الآلام النفسية والبدنية  
فهل لنا من خلاص ؟ هل لنا من مبدأ جديد نضع اساسه يهيء  
لنا ان نكسر بايدينا الضعيفة تلك القيود التي قيدتنا بها الطبيعة

وان نمحو آثار المظالم التي كتبها علينا اقوياء الارض بلا ذنب ولا جريمة  
هل لنا ان ننفخ في صور الحزن العام الذي تشترك فيها الانسانية  
باسرها؟

ام هذه ايضا هي خرافات نفس معذبة اذا عاد اليها هداها  
وملكت رشدها هدا روعها وسكن اضطرابها واستسلمت لحكم  
القضاء الظالم وخضعت امام تلك المغارم وحينئذ ينبغي للمعذبين ان  
يقيموا على الضيم حاسري الرؤوس خارين الى الاذقان متظرين  
فراغ الكأس التي قسم لنا ان نجرعها صابرين الى اللحظة  
الاخيرة التي نودع فيها هذه الحياة القاسية !

حينئذ ينبغي لنا ان نضع ايدينا وراء ظهورنا ليقبدها القضاء  
بقيوده وليسوقنا القدر امامه مطرقين كما كان الرومان يسوقون  
اسراهم ويدخلون بهم رومة ظافرين متصرين .

حينئذ ينبغي لنا ان نستسلم لكل شيء وتقر بعجزنا امام من  
هو أقوى منا واذا شعرنا بقسوة المنظمات الطبيعية والبشرية وشدتها  
فلنهمس في آذان بعضنا باننا مظلومون ولنشهد احجار الارض  
وكواكب السماء باننا مظلومون لان اخواننا البشر لا يرحمون ولا  
يشفقون واذا اشفقوا ورحموا فليسوا بقادرين ان يخففوا عنا مصائبنا

ودموع الانسانية وآهاتها لاتمحو سطرًا واحدا مما كتب القضاء  
على الجبين ؟ ان هذا هو الضعف الميين .

لكنتي لا اتردد في كتابة هذه الشكوى «ورقة اتهام» اتركها من  
بعدي ليعلم الناس حقيقة الخال ، ورقة اتهام ادعي بها على قوى  
الكون جميعاً انها كلها اشتركت في الجريمة التي قضت على الانسانية  
بالآلام الطويلة التي ليس لها آخر الا بالموت الزوأم اذا لم تنفض  
عن كاهلها غبار العجز

الموت الزوأم ! نحن الذين نبغض الحياة الدنيا ونحتقرها ونعد  
من يحبها جاهلاً نقول أنه موت زوأم نحن الذين لم نذق في حياتنا الا  
ساعات معدودة من سعادة موهومة كانت تعادلها سنون وشهور  
ذقنا فيها صنوف الآلام . نحن نصف الموت بأنه زوأم .

ألا انه علاج سائر الادواء !

أليس هو النهاية الكبرى لذلك الشقاء فلماذا اذن ندعوه  
بالزوأم ؟

أليس امامنا من الاسباب العقلية والنفسية ما يدعونا الى حب  
الموت والسعي اليه واستهانة آلامه ان كان فيه آلام ؟ ولكن الغريزة  
الحيوانية الدنيئة اراها لاصقة بالحياة اراها تحب العيش مهما كان مرا

وتفضله على الموت مهما كان حلوا . اذن فلنعش ولتألم ولنسذق  
صنوف العذاب ولنشرب كأس الألم حتى حثالتها مادامت الطبيعة  
التقوية جعلتنا نرجف ونرتعش من صورة الموت اذا تخيلناها ! أين  
أنتم يا فلاسفة الارض ويا حكماء الحياة أين انتم لتحلوا معي ذلك  
الغز الذي لا يحل أين انت ايتها الحقيقة العظيمة المتبرقة ببرقع لم  
يجسر ذوو أشد النفوس قوة على رفعه ؟

اين انت ايتها الحقيقة الجليلة لاسرع اليك ولا مزق ذلك  
النقاب الكثيف ولا نظر اليك وجهاً لوجه ولا قرأ في جبينك الوضوء  
حلا لمعجزة الحياة والوجود ؟

اين انت ايتها الحقيقة المستترة لاصل اليك ولا شكوك الآلامي  
ومصائبي وآلام اخوتي في الانسانية تشفقي وتمطري من عينك  
النارقتين دموعاً تمزج بدموعي وتنادي بصوت الام الحنون  
« الي ايها الولد التائه الضال الحزين الي لاخفف آلامك ولاسكن  
لوعتك » ثم تسفرين عن وجهك فاخر امامك ساجداً صعفاً كما خر  
موسى من قبل امام وجهك في جبل الطور ؟

الست انت ايتها الحقيقة التي اوشكت ان تشفقي علي يوماً  
كنت فيه على رأس الجبل في بقعة سحيقة من الارض وكانت

السماء ممطرة والشمس تغيب وتظهر وانا ابكى من قلبي فخيلى لي اني  
اسمع صوتا وارى وجهاً جميلاً فخررت على حجر ومازلت جاثماً حتى  
نبهتني قشعريرة شديدة سرت في بدني فاسرعت منحدرًا  
وشعرت براحة وسرور؟

الست انت من حاولوا ان يكشفوا سرى في هياكل افريقا  
ومعابد آسيانم عادوا خاسئين؟ الست انت ايتها الحقيقة التي  
تركت في كل مكان أثراً من آثارك حتى اذا بلغه أحدنا نحن  
المساكين أغويته وجذبه اليك ثم اختفيت من امامه  
كالسراب الذي يخدع التائهين في الصحراء؟ الى متى أيتها الحقيقة  
يبقى الانسان ضالاً تائها؟ والى متى يدوم ذلك السباق الاليم  
بين الجهل والعلم بين الباطل والحق بين النور والظلام؟

اغفري لي ايتها الحقيقة يام الامم وياسيدة العوالم وياالهة الالهة  
ويا من شيدت لك الهياكل والمعابد واقامت لتمجيدك الكنائس  
والمساجد وحلم بك كل صاحٍ وهاجد اذا تمجعت على مقامك الاسمى  
وطلبت منك طلباً مجحفاً . اعذريني ايتها الحقيقة العظيمة اذا تسرب  
الشك الى قلبي واسكرني الحزن وتغلبت على الآلام فكفرت يوماً  
بنعمتك وقلت ليس في الورى سوى الجهل والظلم والظلام وان



الحقيقة التي ينشدونها عبثاً ليست الا وهماً من الاوهام ،

ان قلبي مملوء بك ونفسي متشعبة بصورتك وفؤادي ووجداني  
كلاهما يوقنان بك ولكن الست بشراً ضعيفاً الست من تلك  
المخلوقات العاجزة الضئيلة التي تريد كل شيء ولا تنال شيئاً التي  
تسمي نفسها بالانسانية . لقد رأيت ادلة كثيرة تثبت وجودك  
وعلمت بالخبرة انك هنا وهناك في العلا وعلى الارض عن يميني  
وعن شمالي امامي وورائي ولكن لما امسك بعد باهدابك ولم  
استطع مع شدة جهادي وثباتي وطول صبري ان المس ذيل  
ثيابك . اسمعك تأمريني بالصمت والسكوت اسمعك تقواين  
لي بعداً أيها العاجز الجاهل ان الحقيقة لاتمس ولا تنال بالحس  
ولكن الست بشراً لا يرى الا ما يقع تحت الحس اذا كان هذا  
عبي فهل انا وحدي المذنب ؟

لا اريد ان اعرف كل شيء ، فليس هذا بهمني وان كان بهمني  
فلست قادراً عليه ولكنني اريد ان اعرف شيئاً واحداً : هل قسم  
لبعضنا ان يسمعوا العالم اصواتهم وان يخرجوا قواهم الى الارض فيشعر  
بها ويراهها كل البشر ام قسم لهم ان تكتم انفسهم قبل ان  
يصرخوا صرختهم ؟

ان كانت القسمة الاولى من نصيبهم فجودي عليهم ايتها الحقيقة  
بالصبر والثبات حتى يقوموا باداء الرسالة التي اردتها لهم جودي عليهم  
بالطأينة كما تجود المعشوقة الجليلة على العاشق المسكين بكلمة تسكن  
نفسه اليها قولي لهم اصبروا واعملوا كما تقول المعشوقة الجليلة للعاشق  
المسكين « انت في حل من حبي فحبي » جودي ايتها الحقيقة ولا  
تركهم معذنين جودي ايتها الحقيقة بكلمة واحدة وكفاهم الماء  
جودي بتلك الكلمة التي تكون غذاء نفوسهم الى الابد ،

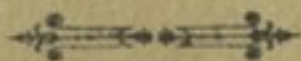
اما اذا كانت القسمة الثانية هي نصيبهم فاعبسي في وجوههم  
وادفعي بهم يدك القوية واركبهم بسقطوا في المهواة السحيقة التي سقط  
فيها ألوف الالوف من قبلهم والتي لانزال يخرج منها صوت عويلهم  
انظري ايتها الحقيقة بحكمك الاخير !

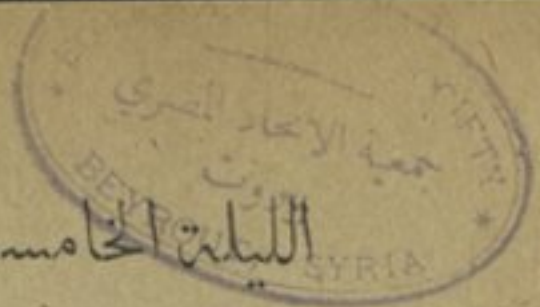
انني ايتها الحقيقة منذ الساعة سأكون كما كنت في الماضي  
عبداً مخلصاً لك . سأنسى كل آلامي منتظراً امرك العظيم سأصبر على  
همومي واحزاني والقاهها بصدر رحيب سأكنم شكواي وأعلل النفس  
بالفرج القريب . اذا رأيت الناس تبغضني واعدائي تغيظني واهل  
الظلم يكيدون لي سأعرض عن ظلمهم وغبظهم سأهزأ بمكائدهم  
ومفاسدهم سأضحك من خداعهم وشرورهم لانني لأأمل لي الا  
فيك وانت أعظم من يؤمل فيه .

لن اتسكو بعد اليوم وحدتي لن احزن بعد اليوم اذا  
بكيت منفرداً لن اضجر من آلام الفقر والمرض والشقاء بل القاهها  
جميعها مسروراً مستبشراً .

انني ايتها المحبوبة المتبرقة صابر قانع . اذا التفت حولي فلم أر  
احداً يونسني في وحشتي ويساعدني في كربتي ويفرج همي فلن  
اسأل بعد اليوم لماذا ليس لي في هذه الدنيا صديق ! فانت على  
بعذك صديقتي وانت على نسرك وتقنعك محبوتي التي سأخلص  
لها بل انت الهني ومعبودتي انت ايماني ودينني انت قبلي وكعبي  
انت حياتي وموتي انت سعادتني وهنأتي ايتها الحقيقة انت الكل في  
الكل انت الوجود والعدم انت الخالدة منذ القدم .

اسعفيني واسعديني ايتها الحقيقة فاني لا أزال صابراً





## الليلة الخامسة عشر

### ليلة الوداع

فلما قرأت تلك الاناشيد زادت حيرتي وحزني . وقطعني الروح  
 الحائر فهو لا يزورني يخفف بحديثه ما بنفسي فالتخذت من الصبر درعاً  
 الى ان ضقت بالحيرة ذرعاً . ثم سمعت الروح يقول لي في نومي اني  
 زائر لا آخرة ولكن لانساني ان ارفع عن بصيرتك نقاب  
 الحيرة فلو استطعت لغيري هديت نفسي . ثم وافاني الروح تحت  
 جناح الظلام وفي يده المصباح الذي يهدي خطاه في عالم الارواح  
 فعلمت لأول وهلة انه لا يزال كما كان حائراً . ولكنني الليلة لمحت  
 انتهاك قوته وخفوت صوته .

قلت له : «ماذا أوحى اليك ما كتبت في تلك الاناشيد الستة ؟  
 ان بعضها كالريح الصرصر العاتية تغرق سفن الآمال وبعضها  
 كاعصار الصحراء تدفن العواطف وبعضها كالسموم تخمد قوي  
 النفس وبعضها كريح الشمال تعيد الحياة الى الروح »  
 قال : « أوحاها اليّ طمأني الى الوصول الى الغرض الاسمي والمثل  
 الأعلى ( ايديال ) »

قلت : « وماها ؟ »

قال : « الغرض الاسمى هو بلوغ الانسانية ارقى مراتب الكمال والمثل الأعلى سلوك الافراد والجماعات سبيل الوصول الى تلك المرتبة . »

قلت : « وماهي ارقى مراتب الكمال . »

قال : « انها لاتعد وأولها سعادة الانسانية ؟ » .

قلت : « وماذا تقصد بالسعادة ؟ »

قال : « انها درجات وأنواع . »

قلت : « وما أول درجاتها ؟ »

قال : « تقدير الحياة قدرها . والاكتفاء بها دون سواها

مادمناعلى الارص . »

قلت : « اذن هذا تعلق بالمادة لايليق بالارواح . »

قال : « أليست المادة ازلية ؟ انها نصف قوة العناية . »

قلت : « تركتني في حيرة لاتنجلي فقد نعمت على كل شيء ،

حتى جعلتني مثلك ناقما . وبكيت على كل حي حتى ابكيتني وشقيت

بعقلك وحبك للوقوف على دقائق اسرار الوجود حتى اشقيتني . »

قال : « انني رويت لك احاديث عن الشرق والغرب أمماً

وافراداً وفأمتك فيما كان يجول بصدري من دواعي الحزن الانساني  
ونقلت اليك شعر الارواح وابحت لك اذاعة مادوته وطويته  
فاعطيتك صورة من نفسي . ولكن لدى أحاديث لاتنتهي وفي قلبي  
عواطف لا افرغ مدى الدهر من وصفها لانني لا استطيع حصرها .  
ولكنني اشعر بان دور الخيرة قد انتهى او كاد ينتهي فان التقينا  
بعد الليلة كان لي معك حديث آخر لم تسمعه اذن ولم يخطر على  
قلب بشر .

قلت : « امنصرف غني ايها الروح العزيز بعد طول الود  
اقاطمي بعد تلك الصلاة » .

قال : « صه فلا فائدة في العويل . قد آن لي ان اطوف  
عواالم اخرى وانتقل الى دوائر غير التي انا بها » .

قلت : « اي طريق اسلك وعلى اي درب اسير في مهامه  
الحياة الارضية » .

قال : « انهض من عثرتك اقاتلك الحقيقة ورفض عن نفسك  
واعمل في الميدان الذي خلقت للجهد فيه الى ان تفوز او تخذل » .  
قلت : « وما هو هذا الميدان ؟ »

قال : « هو ميدان الحياة الانسانية . ان مايعرض لك من  
المسائل الارضية لا يحمي ولا يحصر فاصرف قوتك في حلها وافعل

من الخير ما استطعت . واتمس العمل فانه درع تتقى به نصال  
الحياة .

قلت : « وما غاية العمل على الارض : الم تقل اننا جئنا اليها  
وسنذهب عنها اعتبارا » .

قال : « قد يكون ذلك ولكن الم تجدوا انفسكم على هذا الكوكب  
وان لوجودكم غاية ان لم تقصدها القوى التي اوجدتكم فاخلقوها  
بانفسكم الا تذكر كلمة الفيلسوف العتيق الهازي . من الحياة والوجود  
التارك في صحيفة الدهر بسمه ازلية ابلغ من كل قول قديم وجديد .

فولتير القائل « اذ لم يكن لكم ارباب فاخلقوها » .

كذلك اذا لم يكن لكم مثل اعلى فاسعوا في ايجاده .

قلت : « واي مثل اعلى بعد ما ذكرت » .

قال : « المثل الاعلى هو البحث عن الحقيقة »

قلت : « وما هي الحقيقة ؟ »

قال : « تسألني عن الحقيقة ما سهل السؤال واصعب الجواب .

وهل لو عرفتها بقيت حائراً . ولو كانت على اطراف الاسنة تنقل من

فم الى فم ما كان للحياة والجهاد والالم معنى فهي اللغز الذي يسعى

الكل في حله فمعظم الناس انصرفوا عن الغرض الاكبر والهنهم

السلسلة  
سلسلة  
الرسائل

اغراض صغرى وقليلون منهم يضربون في مهامه الخيرة .

قلت : « رايتك في بعض اناشيدك تقول رأيت الحقيقة  
ووقفت على سر الوجود » .

قال الروح « هي امان عذبة كنت امني النفس بها ولا يكون  
المرء ابعد عن الحقيقة منه يوم يتوهم معرفة كنهها » .

قلت : « سمعتك تقول حيناً الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية  
فماذا عنيت ؟ »

قال : « قصدت بالحقيقة المطلقة تلك التي وصفتها فقل هي الطبيعة

هي العناية هي الوجود هي الروح هي المادة بل قل هي مجموع ما ذكرت وهي

من امر ربي اما الحقيقة النسبية فهي ملجأ فريق من الحكماء اخترعوها

لتسلية نفوسهم وتعزيتهم . يقولون الحقيقة لا وجود لها وان وجدت

فلا سبيل للوصول اليها . وحياة الانسان على الارض لاتسع البحث

لبلوغ الغرض الاسمي (ايديال) فكل مارآه الانسان حقا فهو حق مادامت

فيه راحة لنفسه وهدى لضميره » .

قلت : « واي الحقيقتين تنشد » .

قال : « ليكن غرضك الاسمي (ايديال) الحقيقة المطلقة واقتنع

بالحقيقة النسبية مادمت في سبيل الوصول الى الاولى » .



قلت : « وماهي السعادة ؟ » .

قال : « هي ضرب من ضروب المثل الأعلى . هي غاية الافراد والجماعات ومعناها ان يتمتع الفرد او الجماعة بالحياة ولهذا شروط عرف الناس بعضها وغاب عنهم معظمها واولها ان يكون الفرد او الجماعة بغير قيود وضعها الغير للانتفاع بها وهذا شرط اولي مطلق وكل ما عداه ثانوي نسبي . ومن لا يجوزه ايس في عداد الاحياء ولا ينبغي الاعتداد به . بل ينبغي ان يبذل في سبيل الحصول عليه كل شيء حتى الوجود الذاتي لان الوجود الذاتي لا قدر له ومثل من يعيش بدون هذا الشرط اكتفاء بالحياة المادية كمثل من يفضل الحياة النباتية الدنيا على الحياة الروحانية العليا .

« قلت هذا الشرط الاول عرفته فما هو عماد السعادة » .

قال : « الحب والفضيلة » .

قلت : « سمعتك تقول الحب عبثاً وضرباً من خيال الشعراء

والفضيلة لفظاً موضوعاً » .

قال : « قصدت نوعاً واحداً من الحب وهو حب المرأة ولم

اقصد المثل الاعلى منه » .

اما الفضيلة التي ذممتها فهي المعروفة لهدكم في الارض وهي صفات توودي بصاحبها الى القوة والتمتع ولكن الفضيلة التي اريدها

الان انما هي المثل الاعلى من كل شي ، وقد يكون اصحابها اخلمكم  
ذكراً واحطكم قدراً وابعدكم عن الجاه .

قلت : « وما هو المثل الاعلى في الحب ؟ »

قال : « هو الحب المطلق العام الذي لا يدخل في دائرة المادة .

كحب الحق والطبيعة والانسانية والوطن وكلها اغراض سامية تنبعث  
منها صنوف الخير » .

قلت : « وما بالك تحقر من شأن الحب المادي بعد ان ذكرت

لي وجوب الاكتفاء بحياة الارض » .

قال : « حاشا ان يكون في القول تناقض انما كل رأي له

مجرى في الفكر . الحب غايته السعادة فلو صدر عنه الشقاء فليس هو

الحب المقصود انما هو ميل مادي يفقد التوازن ويتلف النفس ولكن

الناس فهموا من الاشياء غير المقصود . فهم يطلقون كلمة الحب

« آمور » على عاطفة خادعة . فان شعرت يوماً بتعذيب نفسك في

سبيل حبك فاعلم انه ليس حبا » .

قلت : كيف ذلك والبذل والالم والتعذيب لا تكون الا في

سبيل الحب الاعلى ألم يأتك حديث القديسين واولياء الله والشهداء

من عظم قدرهم بحبهم » .

قال : « اجل . ولكن التعذيب الذي تذكر غير التعذيب

الذي اعني وليس قولي موجهاً لصاحب الذهن الخالي » .

قلت « وما رأيك في العالم . »

قال : « مجموعة أمم ذات الوان واطوار شتى . »

قلت : « بم التفاضل بينها ؟ »

قال : « بالاخلاق . »

قلت : « وماهي الاخلاق التي تعني . »

قال : « هي خلاصة حياة الامة وصورة من روحها . وهي لها

بمثابة سلسلة الظهر للحيوان . وتكون حياة الامم قوة وضعفاً اعتدالا

وميلاً عزاً وذلاً سعادة وشقاء كحال خلقها . فما بادت وماذلت أمة

ذات خلق قويم كذلك ما عاشت وما عزت امة لاخلاق لها . ان

ا كبر الامم جاهاً واعظمتها صولة لاقوام لها بدون خلق واصغرهما من

ذوات الخلق اطولها عمراً وارفعها مجداً . »

قلت : « وماهي مفصلات الاخلاق . »

قال : « انظر في امتك فان كانت ضعيفة ذليلة فاحكم بنقص

خلقها وان كانت قوية عزيزة فهي من ذوات الخلق . »

قلت : « وما رأيك في كبار الرجال ؟ »

قال : « من لا يستغفرهم نفع الذات ولا يقعد بهم شر يخشونه

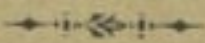
في أنفسهم . »

قلت : « اني سأشرك كل ما حدثتني به على الملائكة » .  
قال : « اتعلم ما ينالك من وراء ذلك ؟ » .  
قلت : « نعم . ان الناس تشكروني اذا نشرت رأياً صائباً  
وتعذروني اذا اذعت خطأ » .

قال : « انك ان قلت ما تعتقد عرضت نفسك للوم لانه هيبات  
ان تجرد من الناس من يرتضي رأيك اذا لم يكن رأيه . وان من  
يقلدون الاغبياء . والمتنطعين اكثر منهم غباوة وتنطعاً لان الغبي  
والمتنطع له فضيلة واحدة وهي حسن النية . اما اذا قلت مالا تعتقد  
بقيت في حرب عوان مع نفسك وأفزع بها من حرب تبدد القوى  
وتفتي نشاط النفس على غير جدوى . وان يكون المرء في سلم مع  
نفسه لا فضل له من ان يكون في حرب معها وفي سلم مع الناس  
اجمعين » . ثم سمعت دويماً وضعف ضوء المصباح . فقلت ايها الروح  
العزير . فلم اسمع جواباً .

فصرخت من أعماق قلبي ايها الروح الخائر فسمعت صوتاً  
قصياً كأنه صوت هاتف يقول :

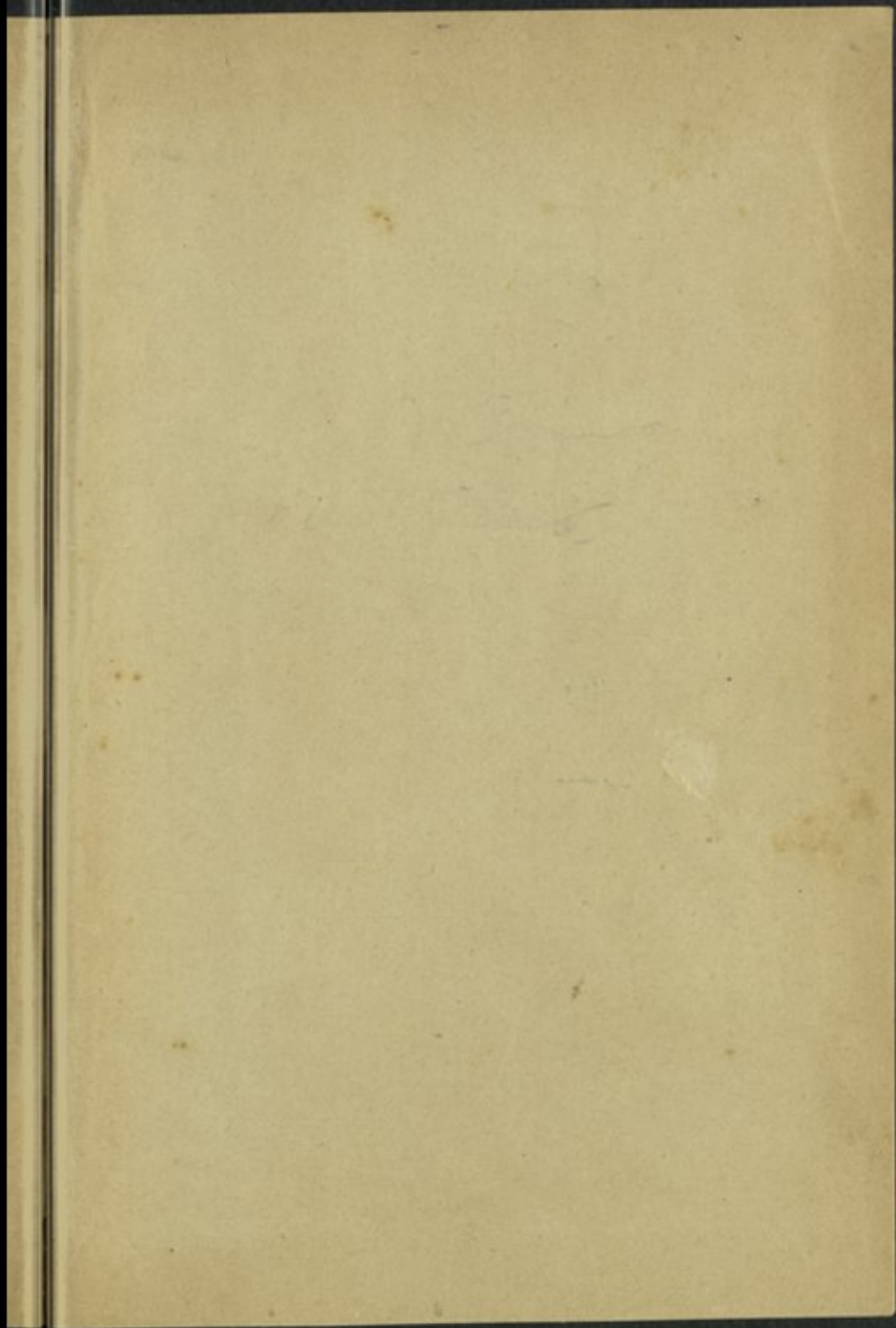
« — قل الروح المهتدي الم تعلم انها ليلة الوداع الاول — ؟ »

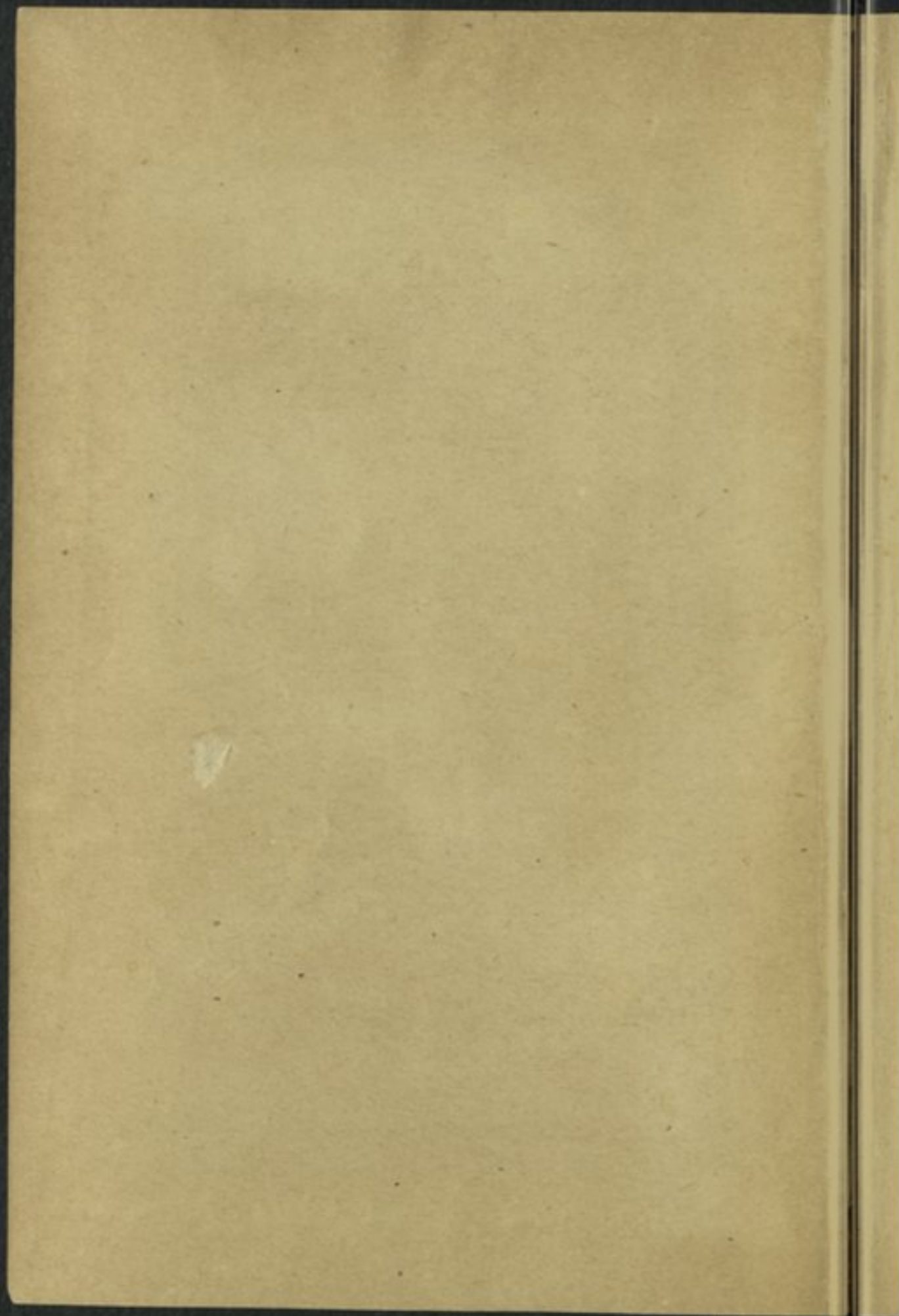


الطبعة في ٢٥ ابريل سنة ١٩١٢

في دار النشر  
الطبعة في ٢٥ ابريل سنة ١٩١٢







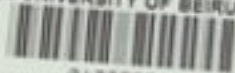
DATE DUE





جامعة محمد لطفى  
ليالى الروح الحائر

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01037901

American University of Beirut



General Library

